مكتبة الشروق الدولية

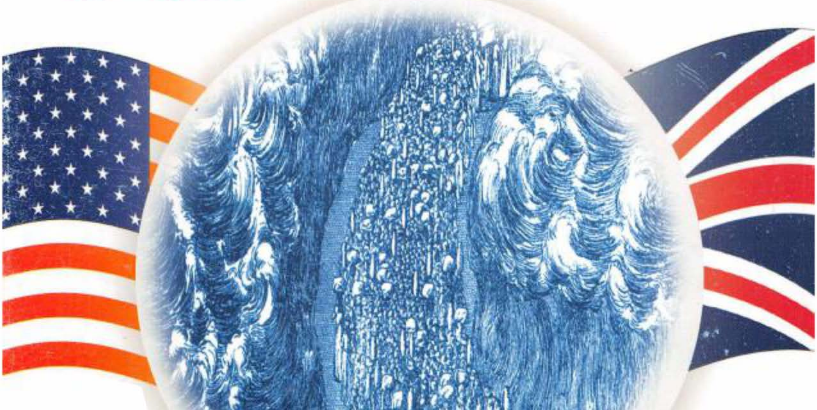
كليفورد لونجلى

الشعب المختار

الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الأول



"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

الشعـب المخـتار

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م

مكتبة الشروق الدولية

ش الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكى

الجزء الأول

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

تصميم الغلاف : منى العيسوى

مقدمة

الشـــعب المختار.... كلمة سحرية .... تكررت فى العهد القديم والعهد الحديث .... وجاء مرادف لها فى القرآن......

هل يفضل الله قومًا ويضطهد آخرين بسبب عرقهم أو لونهم؟

هل اختيار قوم لحمل الرسالة الإلهية يعطيهم حقوقًا وامتيازات عن بقية البشـــر؟ أم هـــو تكليف ؟ وهل ذلك التكليف يشمل إجبار الآخرين، ومن ثم الاستعلاء عليهم ؟

نقرأ فى هذا الكتاب

لـــم يقتصـــر « امتياز الشعب المختار » على بنى إسرائيل فقط ــ فقد جـــاءت الكنيســـة الكاثوليكية واعتبرت أنها أصبحت المختارة، ومن ثم حلت محـــل بنى إسرائيل.... ويعنى هذا أن الرب غضب على بنى إسرائيل، ومن ثم ظهرت معاداة اليهودية فى المسيحية ... ثم إن الكنيسة الكاثوليكية انحرفت عـــن المسيحية الصحيحة ــ فأصبحت المسيح الدجال وعاهرة بابل، وأصبح البروتســـتانت هـــم الشـــعب المختار، وهم هنا ــ بصفة أساسية ــ الشعب الإنجليزى البروتستانتى.

وبســـبب الاضطهاد الدينى، هاجر البيوريتانز من انجلترا لأمريكا فرارًا بديـــنهم ــ حـــيث يذكـــر المؤلـــف ــ بدون الدين ما كانت أمريكا، ثم ثار البيوريتانز فى أمريكا على بريطانيا فى نهاية القرن الثامن عشر، واعتبروا أنفسهم بنى إسرائيل، والشعب المختار الجديد الذى اضطهده فرعون ــ ملك بريطانيا ــ فحاربوهم وانتصروا عليهم.

شـــكلت أسطورة الشعب المختار الثقافة الأنجلوساكسونية، حتى أنها أحد

* * *

يســتعرض المؤلــف تأثير تلك الفكرة، منذ المسيحية الأولى .... حتى جورج بوش الثانى:

• .... لــيس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شعوب العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة ....

جورج واشنطن فى خطاب تنصيبه
الرئيس الأول للولايــات المتحــدة

• .... ربمــا أعــرف عن ملوك بنى إسرائيل أكثر مما أعرف عن ملوك انجلترا .....

دافيد جورج ــ رئيس الوزارة
البريطانية التى أعلنت وعد بلفور

• ...... الاعــتقاد الإنجليــزى بأن أمتهم اختارها الرب .... هذه الأمة المخــتارة التــى ورثــت مهمــة إســرائيل القديمــة وهى نشر الحضارة البروتســتانتية فى أركان الدنيا الأربعة .. وأولئك الذين قاوموا إنما يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم .... أو استئصالهم..

كليفورد لونجلى

• ... الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون .. ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيمانًا بما يتعدى ذواتنا .. وحينما نفتــقد روح المواطنة هذه لا يمكــن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها .... بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا ... وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة ...

جورج بوش فى حفل تنصيبه

عادل المعلم

تقديم

نحن نعيش فى زمن مثير. فقد بدأت فى هذا الكتاب قبل الهجوم الذى وقع على مركز التجارة العالمى فى سبتمبر ٢٠٠١ م. وفجأة بدا أن بحثى الهادئ فى طبيعة الهوية والمصير الأمريكى جزءًا من محادثة قلقة حادة يقوم بها الجميع؛ إذ إن الإحساس البريطانى بالانخراط فى المعاناة الأمريكية، وإسهام بريطانيا فى «الحرب الأمريكية ضد الإرهاب» كشف بشكل ملح عنْ دور بريطانيا العام فى مقابل أمريكا، وهو موضوع مهم آخر كان يحظى باهتمامى.

كان إحساسى الخاص باللوعة فى البداية كثيفا، بحيث منعنى من الانفصال العقلى الضرورى لمواصلة الكتابة، ليس فقط لأن زوجتى من مانهاتن وأنا أعرف هذه المدينة العظيمة وأحبها. كان علىّ أن أتوقف فترة من الزمن. فما كنت أتصوره أساسًا كتابًا عن التاريخ الأنجلو - أمريكى صار كتابًا فى الشئون الجارية، بل هو فى الواقع عما يسميه الصحفيون قصة خبر العقد، وكل من عداهم يعتبره أكبر كارثة مرعبة شاهدوها، أو سمعوا بها. ومثل ملايين غيرى، جلست أنا وزوجتى نشاهده وهو يحدث، حيًا على شاشة قناة CNN.

ما هى أمريكا؟ من هم الإنجليز؟ مقالتى هى أن السر الكامن وراء هذه الأسرار موجود فى رواية صاغها الإنجليز، ثم تلاهم الأمريكيون لأنفسهم، تقوم على أساس تحويل التشابه بين موقفهم وموقف بنى إسرائيل القدماء. هذا هو أصل مصطلح «الشعب المختار». إنه لم يكن مجرد أنهم مختارون من الرب بصفة خاصة. وفى أذهانهم أن اختيارهم بصفة خاصة تم لنفس الغرض الذى اختار الرب اليهود من أجله (ثم نبذهم)، وأن هذا الغرض كان أساسيًا بالنسبة للجنس البشرى على هذا الكوكب.

أما الشيء الذى استمر يدهشنى، ما أن يبدأ المرء فى النظر من هذا المنظور، فهو المدى الذى تقدمت إليه هذه الأفكار لتسوق سلسلة كاملة من التطورات التى كانت حاسمة فى اتجاه التاريخ: ظهور الدولة الوطنية وعزلة انجلترا عن أوروبا؛ الحرب الأهلية الإنجليزية التى جعلت أوليفر كرومويل يحتق على شارل الأول، الإطاحة بجيمس الثانى والأساطير المسلية عن الثورة المجيدة، كراهية فرنسا وإسبانيا، الاستيطان الباكر فى أمريكا، انفصال أمريكا عن انجلترا فى الحرب الثورية، القضاء على سكان أمريكا الأصليين «الهنود»؛ بسبب التوسع الأمريكى فى الغرب، مكاسب انجلترا من تجارة الرقيق ثم معارضتها لها فيما بعد، الحرب الأهلية الأمريكية والقضاء على الرق؛ نمو الإمبراطورية البريطانية فى الهند وأفريقيا؛ تأسيس «وطن قومى لليهود» فى الشرق الأوسط، تورط انجلترا فى حرب القرم ثم فى الحرب العالمية الأولى (والواقع فى الحرب العالمية الثانية أيضًا)، حركة الحقوق المدنية الأمريكية، الاستقامة السياسية، انهيار التمييز العنصرى. ويمكننى أن استمر.

وإذا نحينا أيرلندا الشمالية جانبًا، فإن الكتاب صار تقريبا المعادل التاريخى واللاهوتى للبحث العلمى عن «نظرية لكل شيء»؛ إذ إنه يجيء إلى الساحة نفسها بالسير إسحاق نيوتن ومارتن لوثر كنج، والفيلد مارشال دوجلاس هيج، وجورج واشنطن، وجورج دبليو بوش وتوماس مور، وآدم وحواء، والاتحاد الأوروبى. والمادة الخام الحقيقية لهذه النظرية هى معروفة جيدًا بالفعل، كما أن بعض الكتاب استكشفوا الأجزاء التى يعرفونها أحسن من غيرها بطريقة ذكية، ولكنها مبعثرة بين المتخصصين. والخبرة لها عيوبها. فالمؤرخون الذين كتبوا عن الحرب الأهلية الأمريكية لا يعرفون الكثير عن جفوة هنرى الثامن مع روما، واللاهوتيون الكالفينيون لا يفهمون فى سياسة شركة الهند الشرقية تجاه حرق الأرامل، والخبراء فى دستور انجلترا أو أمريكا لا يعرفون طريقهم إلى سفر التثنية أو الحوليات، والباحثون فى معاداة السامية والهولوكوست لا يرون أية علاقة تربط بين هذا وبين حرب الاستقلال الأمريكية. وما يربط كل هذه الأشياء فى الحزمة نفسها هو مفهوم الشعب المختار. وزعمى الوحيد هو أننى أعرف ما يكفى عن كل من هذه الأمور بحيث أجمعها سويًا.

وللوهلة الأولى (على الأقل بالنسبة لعينيّ الحديثتين) يبدو المفهوم وقد عفا عليه الزمن تمامًا، أو يبدو شيئا محدودًا في إطار المتطرفين الأصوليين. ولا شك في أن هذا أحد الأسباب في أن الباحثين عزفوا عن هذا، كما أنه ليس من المعاصرة أن تنظر باتجاه الدين - والمذهب البروتستانتي بصفة خاصة - لكي تفسر أي شيء. ولكن هذا الكتاب يتضمن بالضرورة حضور هذا المفهوم في انجلترا وأمريكا خلال مئات السنين القليلة الماضية من تاريخهما، ويرهن هذا الحضور على أنه عامل حسم في الطريقة التي تحول بها التاريخ، والحضور الضمني المستمر - وأحيانا الغياب على نحو لا يقل أهمية - لهذا المفهوم ما يزال يكشف عن قدر كبير يتعلق بالحالة الراهنة لهذين البلدين غير العاديين، بما في ذلك دوافعها.

هذا الكتاب ليس ضد الدين، على الرغم من أنه يكشف عن أوجه القصور في صيغة معينة للمسيحية البروتستانتية - كانت منذ زمن غير بعيد النوع الوحيد منها - يعتبرها معظم البروتستانت المحدثين الآن قد عفى عليها الزمن تمامًا، بيد أنه لا يكفي أن نقول «حسنا، هذه كانت غلطة، دعنا ننساها» إذا ما كان البلدان مستمرين على نفس خط السير الذي تم تحديده هكذا، وإذا ما كنا راغبين في معرفة السبب في أنهما على الحال التي هما عليها، فإن من الواجب عليهما أن ينظرا إلى تاريخهما المشترك ولا يمكنهما فعل ذلك من خلال عدسات تحجب الدين في القلب، لمجرد أن الناس «لم يعودوا يؤمنون بهذا». ولذلك فإنه إذا كان هذا الكتاب يساعدنا على الاتصال بماضينا؛ لكي نسيطر على مستقبلنا بطريقة أفضل، فإنه يكون قد أدى عمله.

كليفورد لونجلي

يناير ٢٠٠٢، انجلترا

(١)
المصير فى مواجهة الهوية

يبدأ هذا الكتاب كما ينتهى، بسلسلة من الأسئلة عن الهوية الوطنية، الإنجليزية والأمريكية. أولاً، يأتى الإنجليز، فى السياق التاريخى على الأقل. من هم؟ ما معنى أن تكون إنجليزيًا؟ هل هناك الكثير جدا أم القليل جدا مما يتعلق بالإنجليزية؟ هل يمكن أن يكون رجل أسود إنجليزيًا؟ أم أن جزءًا من التعريف عنصرى؟ هل يمكن أن يكون المسلم إنجليزيا؟ أم أن جزءًا من التعريف دينى؟ وهل يجب لكى تكون إنجليزيا أن تحب انجلترا؟ أم يكفى أن تكون فقط مولودا فى انجلترا؟ هل جزء من التعريف قانونى؟ أم أنها حالة عقلية؟ وما علاقة هذا بالتاريخ الإنجليزى؟

من الأصعب طرح أسئلة مشابهة عن أمريكا؛ إذ إن هذه ليست هى الموضوعات التى تطرأ على الذهن بصورة تلقائية. فحقيقة أنه لا توجد كلمة Americaness (الأمريكانية) فى الاستخدام المنتظم، والمثال الوحيد الذى صادفنى كان موصولا بقوة بالوعى الذاتى (American - ness) يجب أن تنبهنا فى الحال إلى وجود فوارق أساسية. وقليل من الأمريكيين قد يجدون السؤال «ما معنى أن تكون أمريكيا؟» جديراً بأن يطرح، ولا السؤال «هل يمكن لرجل أسود أو رجل مسلم أن يكون أمريكيا؟» فبالنسبة لأى واحد على يسار العنصرية الصريحة، يجب أن تكون الإجابة تلقائيا بنعم، لا مشكلة فى هذا.

وإذا أعدنا صياغة الأسئلة على نحو مختلف قليلاً، بحيث نضع المصير بدلا من الهوية، فإننا نواجه على الفور بأمور يختلف الأمريكيون حولها بقوة ويأخذونها بجدية بالغة، إن الإنجليز هم الذين بدأوا فى مواجهة مشاكل فهم السؤال. ما مصير انجلترا؟ ماذا يمكن أن يعنى هذا؟ أن تهزم إلى الأبد من أستراليا فى الكريكيت؟ ولكن المصير هو مايتناقش حوله الأمريكيون إلى ما لانهاية. إن المعنى الحقيقى أو

الغرض الحقيقى من عبارة «الطريقة الأمريكية» التى تسمى أحيانًا «النزعة الأمريكية»، هو الأيديولوچية أو العقيدة الأمريكية. ومن الأمور ذات الدلالة أنه لم يصادفنى المعادل اللغوى عن «النزعة الإنجليزية» Englandism, Englishism وحيثما تكون هناك كلمة غير موجودة فى اللغة، فيرجع السبب إلى أن الناس يشعرون أنهم يستطيعون فهم عالمهم بدونها. ويمكن أن يكون العكس صحيحًا أيضا. ربما يحتاج الناس إلى مدّ نطاق لغتهم؛ لكى يوسعوا من نطاق إمكانيات الفكر. وقليل من الانتباه «للنزعة الأمريكية» و«النزعة الإنجليزية» يفعل العجائب.

ومن المذهل أيضًا أنه حيثما يكون هناك شىء مثل «نشاط غير أمريكى» - مثلا السلوك المزعوم المناصر للشيوعية، الذى حققت فيه محاكم التفتيش الأمريكية تحت قيادة السناتور چوزيف ماكارثى فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين - يكون من الصعب تصور ما يمكن أن يتكون منه النشاط «غير الإنجليزى»، ويكون من دواعى السرور الإيجابية التفكير فى لجنة يشكلها مجلس العموم للتحقيق فيه. ومن المرجح كثيراً أن يكون هذا فى منطقة «السلوك السىء» وليس فى منطقة السياسة الرديئة، أو ربما يكون نوعًا من الانتهاك للقواعد المستقرة لدى الإنجليز الذين عرفوا بالتحكم فى أنفسهم عاطفيًا، وترفعهم. وفى هذا الخصوص لا يكون الوصف «غير إنجليزى» وصفًا سلبيًا بصفة خاصة. فالعمات المعذبات اللاتى يعتقدن أن الإنجليز بصفة عامة مقفلون للغاية وباردون عاطفيًا تجاههن، لا يترددن فى أن يحثنهم على أن يكونوا «أقل إنجليزية» فى التعبير عن مشاعرهم. ولا يرد على البال أن يطلب كاتب أمريكى مسئول من الأمريكيين أن يكونوا «أقل أمريكية».

ومن المحتمل أن يكون من المفيد جداً للإنجليز (أيا كانوا) أن يعتبروا أمريكا مجتمعًا موازيًا ولكنه مختلف، وأن يتعلموا من التشابهات والاختلافات، وبالتالى من الأسباب. بل إنه ربما يكون مفيداً للأمريكيين أن يقوموا بهذه العملية أيضًا - وربما يكون هذا أكثر فائدة مما يدرك معظم الأمريكيين فى البداية، والبعض يفعل هذا. وفى كتابه «American Exceptionalism» يؤكد سيمور ليبست على أن «من المستحيل أن نفهم بلداً دون أن نرى كيف يختلف عن البلدان الأخرى، وأولئك الذين يعرفون بلداً واحداً فقط لا يعرفون أى بلد». وهو أمر ضرورى لهذا الموضوع خاصة، طالما أن مصطلح «استثنائى» يتضمن نموذجًا قياسيًا خرجت أمريكا عليه.

ولكن مقارنتنا بين انجلترا وأمريكا قد لا تخدم هذا الغرض، طالما أن هناك، من الناحية التاريخية على الأقل، أشياء أيضًا مثل «الاستثنائية الإنجليزية» وحتى ولو لم تكن تسمى بهذا الاسم عادة. ومن ثم فإن انجلترا لا تستطيع تقليد النموذج القياسى. والاستثناءان متصلان ببعضهما: كيف بالضبط؟ هذا هو موضوع هذا الكتاب.

هاتان الأمتان تشتركان فى أصولهما وفى تاريخهما إلى نقطة بعينها. والسؤال عن كيف ولماذا صارتا مختلفتين قد يلقى الضوء على الشخصية الوطنية على جانبى المحيط الأطلنطى. وربما تكون الممارسة قد أعطت الأمريكيين أسبابًا أكثر للفخر بتمايزهم الأمريكى، وربما يكون الإنجليز قد تعلموا المزيد من الأسئلة المفيدة حول مصيرهم، ويكون الأمريكيون قد تعلموا أسئلة مفيدة عن هويتهم. وربما يسأل أحد الانجليز على سبيل المثال، مثلا: ألا توجد مشكلة حقًا حول هوية الأمريكيين السود؟ من الخارج، يبدو أنه كانت هناك مشكلة. ففى أرض الأحرار، ماذا يعنى أن تجبر على أن تكون أمريكيًا، مثلما كان أسلاف العبيد الأوائل قد أجبروا؟ أو أن تكون منحدراً من مثل هذا الأصل؟ هل هناك استثناءات فى الاستثنائية الأمريكية؟

هذه المسائل لم تكن مختلفة منذ مائة عام مضت؛ إذ إن الكاتب الأسود والزعيم السياسى الشهير دى بوا قال سنة ١٩٠٣ م:

«إنه شعور خاص، هذا الوعى المزدوج، هذا الإحساس بالنظر دائما إلى الذات من خلال عيون الآخرين، والحكم على روح المرء بمقياس عالم ينظر إليه بالاحتقار والشفقة. ويشعر المرء على الدوام بثنائيته - أمريكى وزنجى، روحان متصارعتان غير متصالحتين، نموذجان يتقاتلان داخل جسد أسود واحد، لا تحفظه من أن يتمزق أشلاء سوى قوته العاتية.

إن تاريخ الزنجى الأمريكى هو تاريخ هذا النضال - هذا الشوق - للحصول على رجولته الواعية بالذات، وأن يضع ذاته المزدوجة فى ذات أفضل وأكثر صدقًا. إنه لن يضفى الصبغة الأفريقية على أمريكا؛ لأن لدى أمريكا الكثير الذى تعلمه للعالم ولأفريقيا. وهو لن يذيب دماء الزنجية فى فيضان الأمريكية البيضاء؛ لأنه يعرف أن الدماء الزنجية تحمل رسالة إلى العالم. إنه ببساطة يرغب فى أن يجعل من الممكن للإنسان أن يكون زنجيًا وأمريكيًا...».

وفى كل من انجلترا وأمريكا، سيطر على النساء أيضا شعور قوى بأنهن

مستبعدات من عمليات صنع الهوية الوطنية فى الماضى، لدرجة أن هناك أسئلة جادة عما إذا كان بوسعهن حمل هوية لم تشاركن فى صنعها. وفى انجلترا، فضلاً عن ذلك، هناك الآن جماعات مهمة أصولها ليست أنجلو-سكسونية بيضاء بروتستانتية، ولم يصلوا على الرغم من عيشتهم فى انجلترا، إلى اعتبار أنفسهم إنجليزاً بمعنى الكلمة. ومسألة ما إذا كانت كلمة «إنجليزى» نفسها تشير إلى جنس أو أمة لم تجد حلاً، مع وجود بعض الناس السود المستعدين لاستخدام الكلمة للدلالة عليهم، والبعض يفضل المصطلح «بريطانى» الأقل تحديداً.

و «الإنجليز البيض» أنفسهم، فى الوقت نفسه، يبدون أكثر استعداداً من الناحية النظرية لقبول مفهوم «الإنجليز السود» مما هم فى الواقع. ويرجع هذا من ناحية إلى العنصرية، ولكنه يرجع أيضا من ناحية أخرى إلى العكس-عزوف نبيل عن فرض الاندماج الثقافى فى «الإنجليزية» بطريقة أصعب أو أسرع مما يراه الأفريقيون أو الآسيويون مقبولاً. بيد أن إحساس «دى بوا» باغتراب السود فى أمريكا منذ مائة سنة مضت ليس غائباً عن انجلترا اليوم. وسيبيل فوينكس التى ولدت فى مستعمرة جويانا البريطانية واستقرت فى انجلترا سنة ١٩٥٦م كتبت عن الحيرة المضنية والالتباسات فى هوية البريطانيين السود فى كتابها «Belonging To Britain»:

«إنها لحقيقة أن المرء أسود وينتمى إلى انجلترا. فأنت تنتمى. وأنت تعلم أنك تنتمى. ولا يمكن لأحد أن ينتزع هذه الحقيقة. وأنت تصنع مكانك فيها؛ لأنك تعرف أنك تنتمى إليها. ولكن ليس من الممكن أن تكون أسود وأن تشعر أنك تنتمى إلى بريطانيا. ليس هناك فرق، فبسبب إنسانيتك تمضى فى العمل، وتصلى وتأمل بأنه سيكون هناك قبول إن آجلاً أو عاجلاً».

ومع هذا، فإن هناك «إنجليز» من الكاثوليك البيض سوف يقولون إن سيبيل فوينكس تمتلك بالفعل العلامة المميزة للإنجليزية، التى صارت مهمة حقًا فى الأربعة قرون الأخيرة-أى البروتستانتية-ولذلك فهى بالفعل وشمة للإنجليزية حسبما تحددت تاريخيًا، وبطريقة لا تنطبق عليهم.

والإنجليز والأمريكيون (من كل جنس ولون) لديهم من الأمور المشتركة ما هو أكثر بكثير مما بينهم من اختلافات، على الرغم من أن معظمها مخبوء تحت السطح. فالقصص التى يروونها لأنفسهم عن أنفسهم متداخلة. وجزء من أن تكون أمريكيا

هو «ألا تكون إنجليزيًا» بمعنى ما، وكذلك يعني «كنت إنجليزيًا ذات مرة» (ويبدو أن هذا ينطبق حتى على أولئك الذين لم يكن أجدادهم من الإنجليز). وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن الرابطة الإنجليزية لها ثقل كبير في الموروث. وجزء من أن تكون إنجليزيًا «ألا تكون أمريكيا»، وهو مزيج بين الحلو والمر من الازدراء والمودة والحسد. حتى مع هذا، فإن الإنجليز لديهم ثقة مستقرة في كونهم إنجليزاً أكبر من ثقة الأمريكيين في كونهم أمريكيين. وعلى أية حال، فإن الإنجليز يقولون لأنفسهم نحن الذين كنا نحكم ذات مرة إمبراطورية كانت تغطي ربع الكرة الأرضية، وبذلك اكتسبنا حق الإعلان عن أننا «كنا هناك وفعلنا ذلك» حتى ولو لم يكلفوا أنفسهم مشقة هذا الإعلان.

وكتبت صحفية أمريكية تعيش في انجلترا، وهي برندا مادوكس، بعد الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن سنة ٢٠٠١م، بوقت قصير، في صحيفة «الجارديان»:

«واحد من أقوى الدروس التي تعلمتها من طفولتي في ماساشوستس هو غرض الولايات المتحدة. فقد بدا وكأن التاريخ الإنساني برمته يؤدي إلى خلق بلد الرب؛ فيها الحرية والعدالة للجميع... لم تكن أمريكا القلعة، وإنما أمريكا الجميلة، آمنة - يحميها الرب والجغرافيا - «من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي». وحينما جئت لأعيش في انجلترا في عصر كينيدي، كنت أتكلم بثقة مفرطة عن تفوق الطريقة الأمريكية. وبدأت ذات يوم أقول «في بلادي...» حينما قاطعني شاب لبق بقوله: «في بلادي لا نقول في بلادي». وصدمني اللوم المهذب بقوة الكشف؛ إذ إن هناك بديلاً للوطنية غير الواعية. ففي بلد متسامح، ناضج واثق بنفسه، لم يكن من الضروري أن تضع يدك على قلبك وتقول إنني أحب هذا البلد، أو حتى تشير إليه بضمير الملكية. فهل سمعتم أبدًا من يقول «ملكتنا» أو حتى «رئيس وزرائنا»؟.

وربما يكون وصف متسامح، وناضج، وواثق من نفسه، وصفًا مجاملاً إلى حد ما لبريطانيا الحديثة، على الرغم من أن الفكاهة والسخرية المعتادة في وصف الإنجليز لأنفسهم، طالما بقيت، لا يمكن أن تكون علامة على عدم الشعور بالأمان. ويمكن فقط للإنجليز أن ينشدوا «أرض الأمل والمجد» بمزيج من التعاطف والسخرية. وقد يعتبر الأمريكيون نفس المقاربة لنشيد «بارك الرب أمريكا» مقاربة

غير متدينة ولا ولاء فيها. وربما لهذا السبب يمكن للإنجليز أن يسألوا أنفسهم من الأسئلة الفاحصة أكثر مما يمكن للأمريكيين أن يفعلوا؛ إذ إن لديهم عدداً أقل من البقرات المقدسة.

والبلد الجغرافي ليس مجرد مساحة على الخريطة والناس الذين يعيشون فيها، ولكن الوطن هو «جماعة متخيلة»، فكرة ماثلة في أذهان أعضائها. فهم يسكنون بلادهم ويمرون بتجاربهم فيها، وهو ما يُخصّب خيالهم بذكريات مرئية ومسموعة ومشمومة. وهم يستوعبون هويتهم من خلال أحاسيسهم الفردية وكذلك من خلال ذكرياتهم الجماعية. وأن تكون إنجليزيا أو أمريكيًا يعني أن تكون عضواً في مجتمع بعينه، في وطن، في جماعة من الناس لهم أشياء أساسية معينة مشتركة فيما بينهم (على الرغم من أن التحديد الدقيق لهذه الأشياء ربما يكون محل جدال). وإذا ما كانوا إنجليزاً أو أمريكيين، فإن علاقتهم على مدى ما يقرب من خمسمائة سنة بوطنهم، حكمت خيالهم الديني وكل أنواع الخيال الأخرى. وربما يكون هذا هو السبب في أن الإحساس بهذه الأمور عميق إلى هذه الدرجة. فأنت تكون إنجليزيًا أو أمريكيًا يتعلق هناك «بالرب والكون وكل شيء».

ومفهوم الجماعة المتخيّلة هو مفهوم ندين به إلى عالم الاجتماع الأمريكي الحكومي بندكت أندرسون، ففي كتابه «Imagined Communities» يجادل بأن الوطن يوجد في مخيلة أعضائه، لأنه حتى في أصغر الأوطان، لا يمكن لأي مواطن أن يعرف كل أبناء الوطن الآخرين، ولكنه مع هذا يشعر أنه مرتبط بهم:

«... إنها جماعة مُتخَيَّلة؛ لأنه بغض النظر عن عدم المساواة الفعلية والاستغلال الذي قد يكون سائدا في كل الأوطان، فإن الوطن دائما يُنظر إليه على أنه رفقة عميقة وأفقية. إنها في التحليل الأخير علاقة الأخوة التي تجعل من الممكن، على مدى القرنين الأخيرين، أن تقبل هذه الملايين العديدة من البشر على الموت في سبيل مثل هذه التخيلات المحدودة».

ومن هنا فإن المواطنين في مثل هذا الوطن يشتركون في هوية مع أناس آخرين لا يعرفهم هو أو هي، ولكن يمكن تخيلهم. وهو لا يشعر بهذه الرابطة مع أبناء الأوطان الأخرى الذين يعيشون فيما وراء الحدود المرسومة لهذا الوطن (وهي حدود غير معروفة أيضا، ولكنها أيضا متخيلة إلى حد ما).

ومن الجدير بالاستكشاف بطريقة أكثر دقة ماذا يستدعى ذلك الجهد فى التخيل. ففى الحالة الإنجليزية، كان الجهد المطلوب تقليديًا عملاً من أعمال الذاكرة أساسًا. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بالسؤال، أولا «من كنا»؟ وما لم نعرف من كنا، فإن الإنجليز سيقولون لأنفسهم نحن لا نعرف من نحن. ولكن فى الحالة الأمريكية، يكون فعل التخيل فعل إرادة. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بسؤال «من نريد أن نكون؟».

وهكذا، فإن إحدى الإجابات تعود بنا القهقرى فى الزمن، على حين تشير الإجابة الأخرى إلى الأمام. وإحدى الإجابات واضح أنها أكثر حيوية، والأخرى أكثر سلبية. فالمستقبل يمكن تغييره، ولكن الماضى لا يمكن تغييره (على الرغم من أنه يمكن تغيير الطريقة التى تتخيله بها). وفى الحالة الأمريكية، فمن الواضح أن خط الأساس هو الثورة الأمريكية والنتائج المباشرة لها على الخيال الأمريكى؛ إذ إن الآباء المؤسسين، فى وثائق مثل إعلان الاستقلال، والأوراق الفيدرالية، والدستور، وكذلك فى نصوص كثيرة أقل معاصرة، كانوا يسألون أنفسهم بوعى سؤال «من نريد أن نكون؟». والإجابة، وهى شاسعة فى مداها، أنهم كانوا يريدون أن يكونوا «بلد الرب»: كانوا يريدون أن يكونوا المجتمع الكامل. وكما أعلن توماس پين نحن فى قوتنا سنبدأ العالم من جديد.

كانوا يتخيلون أمريكا موجودة بفعل الإرادة. وما تخيلوه لم يكن وصفًا لما كان موجودًا آنئذ؛ بسبب الظلم الموروث للعبودية ومسألة الهنود الحمر. كان ما تخيلوه مثالاً، يجب أن تنمو أمريكا فى اتجاهه. ويصف بولين ماير فى كتابه «American Scripture» إعلان الاستقلال بأنه «تقرير للقيم التى تعبر أكثر من غيرها، لا عن السبب فى انفصالنا عن بريطانيا، ولا ماذا نكون أو ماذا كنا، وإنما تعبر عما يجب أن نكون عليه، وصفة من المثل التى تربطنا ببعضنا كشعب، ولكنها كانت أيضا فى مركز بعض المنازعات الحاسمة فى تاريخنا».

هذا هو السبب فى أن المبادئ السامية التى عبر عنها رجال من أمثال چورچ واشنطن وتوماس چيفرسون، وكلاهما من أصحاب الرقيق، لا يجب استبعادها باعتبارها نفاقًا أو أمورًا تدعو إلى السخرية، وإنما باعتبارها أكثر قناعاتهم إخلاصًا. وفعل التخيل الأمريكى لم يكن فعلاً من أفعال الذاكرة كما هو واضح؛ لأنه لم تكن هناك أمريكا موجودة - سوى باعتبارها مستعمرة - قبل ذلك الزمان. وبقدر ما

يتداخل الماضى فى ذلك الحاضر والمستقبل، فإنها كانت ذكرى عمل سابق من أعمال الإدارة، وهو الفعل الذى قام به المستوطنون الأوائل فى نيو إنجلاند والذين عقدوا العزم على البقاء والتحمل.

بيد أنهم لم يحددوا أنفسهم على نحو ما كانوا عليه من قبل. إنهم لم يريدوا أن يكونوا هم نفس من كانوا من قبل. والواقع أن البيوريتان فى نيو إنجلاند لم يريدوا هذا بقدر ما كان عبورهم الأطلنطى هرباً منه؛ لكى يكونوا شيئًا مختلفًا. وقبل الانتشار السريع لعدوى الأحلام الثورية من الشمال إلى الجنوب فى منتصف القرن الثامن عشر، كان المستوطنون فى فيرچينيا هم الأكثر تحفظًا. فقد كانوا أكثر اهتمامًا بتخيل أن جماعتهم موجودة بفعل الذاكرة. إذ كانوا راغبين فى أن يتشبهوا بالطبقة الراقية الإنجليزية، وأن يفعلوا ما كان عليهم أن يتذكروا أن الطبقة الراقية الإنجليزية تفعله. هاتان الطريقتان فى تخيل أمريكا توافقتا بالقوة سوياً تحت ضغط الغزو العسكرى البريطانى. ولكن التوتر ظل قائمًا واصطدم الاتجاهان ثانية فى الحرب الأهلية الأمريكية حينما انتصر فعل الإرادة مجدداً على فعل الذاكرة. ولا يمكن انتزاع هذا تمامًا من الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابق، حينما طرح الجناح اليمينى من الكاڤاليه عمل الذاكرة - الاستمرارية، الملكية والكنيسة بل وحتى الطراز - ضد الجناح اليسارى الذى طرح عمل الإرادة، وهو بناء مجتمع واضح ولكنه كامل (بيوريتانى).

وتفسيرات هذه الفروق ليست نفسية أو سياسية خالصة، وليست مرتبطة بـ «هنا» و «الآن». إنها تعكس أيضًا ما يفكر الناس فيه حول مكانهم فى العالم؛ وماذا كان واجبهم تجاه الرب وتجاه جيرانهم. وخط الأساس الإنجليزى المعاصر يصعب تمييزه بوضوح. وربما بالنسبة للجيل الحديث من الشعب الإنجليزى لا تزال ذكرى الحرب العالمية الثانية تعيش فى ذاكرتهم الجماعية. والأكثر حضوراً فى الذاكرة هى السنة التى وقفت فيها بريطانيا وحدها - ما بين سقوط فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ م وغزو روسيا فى يونيو ١٩٤١ م. والواقع، وبعيداً عن جلب الراحة إلى البريطانيين، أن النجاح الأولى الذى أحرزه الجيش الألمانى فى تقدمه تجاه موسكو، هو الذى زاد من إحساس البريطانيين بعزلتهم المكشوفة. ولم يتبدد هذا حقًا حتى دخلت الولايات المتحدة الحرب بعد أن هاجمها اليابانيون فى نهاية سنة ١٩٤١ م.

وهكذا فإن الإحساس بكونهم الأمة التى قاومت وحدها الشر المستفحل - الذى

تجسد فى الآلة النازية - كان إشارة إلى فترة طالت على مدى ثمانية عشر شهراً. وإذا تحدثنا بالتحديد، فإن بريطانيا، طبعًا، لم تكن وحدها. إذ كانت الإمبراطورية البريطانية أيضا مشتبكة فى الحرب، سواء كانت تريد ذلك أم لا - على الرغم من أنه بصفة عامة كان هناك دليل على أن مناطق آسيا التى حكمها البريطانيون، والتى اعتبرت مستعمرات بريطانية، كانت تفضل السيطرة اليابانية. والأملاك البريطانية - وهى بلاد مستقلة احتفظت بالتاج مثل أستراليا ونيوزيلاند وكندا وجنوب أفريقيا - كانت مشتبكة فى الحرب بإرادتها، بغض النظر عن الروابط التى تربطها بالبلد الأم. وعلى الرغم من هذا التأييد المعنوى - وكانت كندا فقط قريبة من المساعدة العملية - على مدى تلك الشهور الثمانية عشر، كانت انجلترا واعية تمامًا بحقيقة أن كل الذى كان يفصلها عن قوة الجيش الألمانى هو الواحد والعشرون ميلاً عرض القنال الإنجليزى. وبعد خسارة الدبابات والمدفعية فى الكارثة العسكرية بدنكرك، لم يكن لدى انجلترا جيش ميدانى فعال لمقاومة الغزو إذا حدث.

وقد لجأ الإنجليز من هذه التجربة ليس بسبب ما أرادوا أن يكونوا، وإنما بسبب معرفتهم من كانوا هم. كان تاريخهم هو الذى لم يعطهم أى بديل تاريخى سوى المقاومة، لاسيما تاريخهم فى مقاومة العدوان الأوروبى. ولم تكن هناك حقيقة تاريخية معروفة أكثر من حقيقة أن انجلترا لم تتعرض لغزو ناجح من جيش أجنبى منذ سنة ١٠٦٦، وكما لو أن التسعمائة سنة التى انقضت قد وفرت خندقا حاميًا فى الفضاء العقلى أقوى حتى من مضايق دوفر. والحقيقة التاريخية الثانية المعروفة جيداً كانت هزيمة أسطول الأرمادا الإسبانى فى سنة ١٥٨٨ م، والثالثة انتصار نلسون على الأسطول الفرنسى (ومن ثم تجنب مخاطرة الغزو النابوليونى) فى معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م، كان هذا هو الذى زاد من صلابة العصب الوطنى سنة ١٩٤٠م: لقد كان الأمر يتعلق بما كانت عليه انجلترا، وما كان ما يزال قائمًا فى مخيلة مواطنيها. وكان هذا كافيا. لقد تولى الرب حمايتها؛ لأن الرب أراد أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه من قبل. ولكن انجلترا كانت لا تحارب من أجل عالم أفضل، إلا إذا كان مفهومًا أنه يعنى عالمًا ليس فيه النازيون، لقد كانت تحارب لكى تبقى كما هى. وبسبب موارد الذاكرة المتاحة أمام خيالهم، استطاع الإنجليز مواصلة صمودهم وحدهم أمام النازى على مدى أكثر من سنة فيما كان حقًا ملحمة شجاعة مدهشة فى تاريخهم الطويل.

وسجل هذا لا يوجد بشكل خاص فى أية وثيقة بعينها، على الرغم من أن الخطب التى ألقاها «ونستون تشرشل» زمن الحرب تعتبر مجموعة رائعة من البلاغة الوطنية الإنجليزية. وإحدى فقراته الأكثر شهرة سوف تخدمنا من حيث هى مثال على الكل. وهذه هى الطريقة التى اختتم بها خطبته فى مجلس العموم فى منتصف يونيو ١٩٤٠م، حيث بدأ فى هذا السياق استخدام العبارة الخالدة «معركة بريطانيا»:

«إن ما أسماه الجنرال «ويجاند» معركة فرنسا قد انتهت. وأتوقع أن تكون معركة بريطانيا على وشك البدء. وعلى هذه المعركة يعتمد بقاء الحضارة المسيحية. وعليها تعتمد حياتنا البريطانية الخاصة، والاستمرار الطويل لمؤسساتنا وإمبراطوريتنا. إن كل حنق العدو وقوته لابد أن ينقلب علينا بسرعة. وهتلر يعرف أنه سيكون عليه أن يكسر هذه الجزيرة أو يخسر الحرب. وإذا استطعنا أن نقف فى وجهه، فربما أمكن أن تكون أوروبا كلها حرة وربما تقدمت حياة العالم إلى الأمام فى أرض رحبة مشرقة. ولكن إذا فشلنا، فإن العالم بأسره بما فى ذلك الولايات المتحدة، وبما فى ذلك كل ما عرفناه واهتممنا به، سوف يغوص فى غياهب عصر ظلمات جديد أكثر شؤمًا وربما أطول مدة بأضواء العلم المنحرف عن هدفه. فلنتصرف إذن إلى واجباتنا، ونحمل أنفسنا على أنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث ألف سنة، فإن الناس سوف يقولون: كانت تلك أروع ساعة فى تاريخهم».

هذا التمييز، بين أمريكا التى تتخيل نفسها موجودة بالإيمان فى المستقبل، وبين انجلترا التى تتخيل نفسها فى الوجود بتذكر ماضيها، يحمل بعض التطابق مع التقسيم التقليدى للأنماط السياسية فى كلا البلدين إلى معسكرين أيديولوجيين منفصلين، الهويج والتورى. إذ كان الهويج يؤمنون بالتقدم، أى أن الأمور مرسومة على أساس أن تتحسن، فبالنسبة لهم، الأفضل لم يأت بعد. أما التورى فكانوا يؤمنون بالتقاليد. وبالنسبة لهم الأفضل موجود هنا الآن، أو أنه كان موجودًا فى الماضى بالفعل. وهناك تورى فى أمريكا، وهويج فى انجلترا، ولكن هذه هى الأنماط السائدة: التفاؤل ضد الحنين إلى الماضى، القلق ضد القصور الذاتى.

إن تعريف الإنجليز لأنفسهم، وتصورهم على أنهم جماعة وطنية حسب مصطلحات أندرسون، يمكن أن نجده، بصورة ممتازة، فى الاحتفال الوطنى الذى

حدث بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب، عند تتويج الملكة إليزابيث الثانية فى سنة ١٩٥٣م. لقد كان احتفالاً مجدداً، وكثيرا ما جرى وصفه فى الصحف على أنه بداية عصر إليزابيثى جديد (وبذلك احتفالاً بأمجاد العصر السابق). لقد كان تجديداً لخيال قديم، ولم يكن تخيلاً لشىء جديد. لقد كان فعلاً أقل جسارة من تخيل الذات من الفعل الأمريكى، وعلى الأقل من الناحية الظاهرية، كان فعلاً من أفعال الخيال الدينى. ولا يعنى هذا أن الفعل الأمريكى فى التخيل الوطنى لم يكن دينيًا، فقط أنه لم يأخذ مكانه فى مجرى احتفال دينى مسيحى خاص مثلما حدث فى حفل التتويج. وبطرق أقل وضوحًا، كان الفعل الأمريكى أكثر، وليس أقل، دينية من الفعل الإنجليزى. وفى قلب الفعل الإنجليزى لتخيل الذات كانت الاستمرارية. وفى معظم الوقت لا يتطلب ذلك شيئا أكثر من القصور الذاتى العنيد (على الرغم من أنه فى سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ م، كان يتطلب أيضا شجاعة فائقة).

وأهمية التتويج الذى جرى سنة ١٩٥٣ كما أمكن رؤيتها فى هذا الضوء، جرت دراستها بشكل أوفى فى فصل لاحق. وسوف أكتفى الآن بالنظر سريعًا إلى معادل أكثر معاصرة، وهو القسم وخطبة الافتتاح التى ألقاها الرئيس «چورچ دبليو بوش» فى يناير ٢٠٠١م. فقد استخدم إحالات دينية صريحة، بيد أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه الفقرات من خطبته لم تتسبب فى أى جدل. فمن المتوقع أن الرؤساء الأمريكيين سوف يتكلمون هكذا، بينما سيكون من غير المقنع أن يفعل أى رئيس وزراء بريطانى هذا. ففى بريطانيا، المكان الصحيح للاعتراف بيد الرب فى شئون الوطن هو حفل التتويج أو شىء شبيه به. وربما يكون الحفل.تنصيب رئيس أمريكى ظل من التتويج. ففى خطابه استغرق السيد بوش بطريقة وطنية فى الحديث عن مكان أمريكا فى المشروع العظيم للأمور، فقد أعلن:

«الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون، ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيمانا بما يتعدى ذواتنا. وحينما تفتقد روح المواطنة هذه لا يمكن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها. وعندما تكون هذه الروح موجودة لا يمكن لأى شر أن يقف فى مواجهتها.

فبعد توقيع إعلان الاستقلال، كتب رجل الدولة فى ڤيرچينيا «چون بيج» إلى توماس چيفرسون: «نحن نعرف أن السباق لا يكسبه الأسرع ولا المعركة يكسبها الأقوى. ألا تعتقد أن ملاكًا يركب الريح ويوجه هذه العاصفة؟»

وقد مرّ زمن طويل منذ تولى جيفرسون الرئاسة. وتراكمت السنون والتغييرات. ولكن الموضوعات الرئاسية التى كان عليه أن يعرفها فى ذلك اليوم: هى قصة وطننا الكبرى فى الشجاعة، حلمها البسيط فى الكرامة. لسنا نحن الذين كتبنا هذه القصة، وإنما من يملأ الزمن والخلود بمشيئة. بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا، وواجبنا يتحقق فى خدمة كل منا الآخر.

ونحن لا نتعب أبدا، ولا نستسلم أبدا، ولا ننتهى أبدا، وبذلك نجدد هذا الهدف اليوم؛ لكى نجعل بلادنا أكثر عدلاً وكرمًا، ولكى نؤكد كرامة حياتنا وكل حياة. هذا العمل يستمر. وتمضى هذه القصة.

وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة. فليبارككم الرب جميعا، وليبارك الرب أمريكا».

والحجة التى يقوم عليها هذا الكتاب هى أننا لن نصل أبدًا إلى أغوار هذه المسائل عن الهوية الوطنية والمصير الوطنى، حتى نؤمن بالبعد الدينى مثلما نؤمن بالأبعاد الأخرى، ونعطيه الوزن المناسب له مع الأبعاد الأخرى. وسوف نجد أنه لم يأخذ وزنه الصحيح فى الماضى - على مدى فترة طويلة أخذ وزنًا أكثر مما يستحق، وفى الوقت الحالى (كرد فعل بلا شك) أخذ وزنا أقل مما يستحق - ولكن أولئك الذين يطبقون أفكارهم الحديثة على الماضى يحملون عقلية حديثة، وهى فن المؤرخين فى التجاوز، ولكنهم لا ينجحون دائمًا.

والدين مكون داخلى أساسى أثقل وزنًا فى هذه القصص الوطنية مما قد يتوقع معظم الإنجليز أو الأمريكيين المحدثين. كما أنه غير عادى، وأشد مخالفة للأذواق الحديثة، وأكثر درامية فى تأثيراته. كما أنه مثير للجدل بشكل أشد كثافة، كما أن المجادلات مثيرة إلى أبعد الحدود. وهذا ليس نوعًا من الحفريات الجافة. إنه بحث عن البنادق التى ينبعث منها الدخان. وأولئك الذين يحبون توزيع اللوم على الجميع سيجدون متعة كبيرة. وحقيقة أن القراء المحدثين لم يعودوا يشاركون فى الخيال الدينى للقرن السادس عشر أو القرن الثامن عشر، لا تعنى أن هذه الأفكار غير شاملة، وإنما تعنى فقط أنهم لم يتعودوا عليها. والواقع أننا ربما نكتشف أننا ما نزال نشارك فيها بقدر أكبر مما كنا نتوقعه.

وفى كل من الحالة الإنجليزية والحالة الأمريكية، كان البعد الدينى يجيب على أسئلة

عن الهوية والوطنية والغرض، وهى أسئلة لم تتم الإجابة عنها بما يكفى بأية طريقة أخرى. والإنجليز متقدمون فعلاً على الأمريكيين فى البحث عن الحلول البديلة غير الدينية، ولكن هذا ليس أمراً سهل المنال؛ إذ إنهم ما يزالون فى انتظار الإجابات التى يعرفون أنها لن تخدمهم بشكل جيد تمامًا بعد ذلك. والمقارنات هنا ربما تكون مفيدة للأمريكيين والإنجليز على السواء. وذات مرة كان بوسع الإنجليز أن يظهروا لأبناء عمومتهم الأمريكيين لمحة عن مستقبلهم الممكن، ويحذروهم من الأخطاء التى يجب تجنبها. وربما يكون الدرس أنه إذا توقف وطن مثل انجلترا أو أمريكا عن الإيمان بمصيره مرة، فإن المشكلة التالية الذى عليه أن يواجهها تكون حول مصيره. أو أن الوطن الذى لديه إحساس واضح بمصيره لن يجد صعوبة بشأن هويته.

من الواضح أن الاهتمام بالتاريخ الأمريكى لا يمكن أن يستبعد التاريخ الدينى. وحيث يبدو أن الكتّاب جميعا يتفقون على أنه بدون الدين لما كانت هناك أمريكا يكتبون عنها، وبالتأكيد لما كانت هناك نزعة أمريكية، ولا عقيدة وطنية، ولا إعلان مصير ولا استثنائية أمريكية. وليس من المدهش أن هناك شعوراً معاصراً لدى معظم الأمريكيين الذين يكتبون عن الديانة الأمريكية. وحتى عندما يكون الكاتب مهموماً بالماضى، فإنه لا يكون أقل توجهًا إلى الحاضر والمستقبل. وليس السبب فى هذا راجعًا فقط إلى أن الدين يبقى ضاريًا بجذوره فى أعماق طريقة الحياة الأمريكية. والحقيقة أن معظم هذه الكتابات تقوم بها، ولصالحها، الجماعة الأكاديمية. إنه خطاب من داخل المثقفين. وفى أمريكا (كما فى انجلترا)، فإن هذه إحدى البيئات الأكثر علمانية عقلانية، حيث يكون الدين أقل تجذراً. بيد أن الأكاديميين ما يزالون يهتمون به، وإذا لم يكن جل اهتمامهم بما هو عليه الآن، فإنه ينصب على الكيفية التى كان عليها ذات مرة.

ولكن هذا ليس محل اهتمام الإنجليز. فإذا كان البحث فى حالة الروح الأمريكية منذ مائتى سنة مضت يُظَن أنه يلقى الضوء على حالة الروح الأمريكية الآن - ليس فقط من خلال التشابهات ولكن من خلال الاختلافات أيضا - فإن هذه المقاربة لا تحظى بتقدير كبير فى الحياة الفكرية للإنجليز. ويخرج سكروتون عن العادة وهو يقرر:

«بدون هذا البعد الدينى لا تظهر الأوطان والبلاد كهويات أخلاقية محددة فى وضوح. وبطبيعة الحال، يمكن أن تكون هناك دول بدون دين - والعالم الحديث ملىء بها. . . ولا يوجد طالب يدرس التاريخ الإنجليزى يفوته أن يرى أن الدين كان

منذ البداية مخلوطًا بمعنى التاريخ الإنجليزى، وأن تاريخ الديانة الإنجليزية وتاريخ إنجلترا فى كثير من الحقب لا ينفصلان».

بيد أن هذا ليس رأيًا شائعًا. وأحد الأسباب هو أن هذه المناقشات غالبًا ما كانت فى الماضى ليست نتاجًا، كما فى هذه الحالة، بوصفها أوصافًا موضوعية لحقيقة ثقافية، ولكن بوصفها تأنيبًا أخلاقيًا من جانب أولئك الذين كان لهم اهتمام واسع بأن يرى الوطن يعود إلى طريقة الكنيسة. وإذا ما قيل لأحد إن أحدًا لا يمكن أن يكون وطنيًا دون أن يكون متدينًا، فإذن يمكن للمرء أن يكون إما وطنيًا ومتدينًا فى آن معًا، أو لا يكون وطنيًا ولا متدينًا. وإذ كان أمام الإنجليز الخيار، فإنهم مالوا تجاه الاختيار الأخير، حتى مع أن أولئك الذين قدموا الاختيار كانوا يريدون منهم الاختيار الأول.

ويبدو أحيانا كما لو أن هناك مؤامرة للتظاهر بأن الإنجليز لم يؤمنوا أبدًا بشىء يختلف عما يؤمنون به الآن، وهو ما يتجه، بأى معنى مذهبى أو تنظيمى، لأن يكون قليلا للغاية. فالمناخ الدينى قبل وقوع الحرب الأهلية الإنجليزية ما يزال يجتذب البحث العلمى. وقد حدثت طفرة إصلاحية فى نزعة المراجعة التاريخية فرضت إعادة التفكير -صوب صيغة أقل انتصاراً للقصة التاريخية الوطنية- فى جوانب بعينها من التراث المقبول عن التاريخ الإنجليزى فى القرن السادس عشر. وقد ظهرت هذه المناقشات فى الكتب، والمجلات والصحف والتليفزيون حول موضوعات كانت محرمة ذات مرة، مثل ما إن شكسبير (الذى حظى باختياره رجل الألفية الإنجليزى فى استطلاع للرأى) كان أو لم يكن كاثوليكيًا رومانيًا، وأولئك الذين قالوا إنه كان كذلك نالوا مكافآتهم بالنقاط، على الأقل فى هذه المرحلة من النقاش.

ولكن بينما استمرت سير الأفراد التاريخيين المتميزين أو غير العاديين تبيع بشكل جيد، فليس من المناسب للعصر أن يعول الكتّاب على أفكارهم أو مشاعرهم الدينية. والواقع، أنه ثما انحياز ثقافى عام فى انجلترا يتناول الروابط الدينية، سواء فى الحاضر أو فى الماضى، إما على أنها غاية فى الخصوصية أو باعتبارها هامشية جدا بحيث لا تستحق الكثير من الالتفات.

وعندما قام روى هاترسلى، النائب السابق لزعيم حزب العمال- وهو الآن من مشاهير العمال وله عمود صحفى- بجذب الانتباه سنة ٢٠٠١ م إلى وجود أتباع

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى مراكز قيادية فى السياسة البريطانية، كانت هناك دهشة من نوع ما؛ لأنه ظن أن الأمر يستحق الذكر. إذ إنه أبرز أنه كان من الممكن تمامًا بحلول وقت الانتخابات العامة البريطانية التالية، ربما تكون جميع الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة تحت قيادة كاثوليك رومان. وكان تشارلز كينيدى زعيم الأحرار الديموقراطيين واحدًا منهم بالفعل، وكذلك كان إيين دونكان سميث، فى ذلك الوقت ينافس على زعامة حزب التورى (وقد نجح فى ذلك). كما أن تونى بلير معروف بأنه متزوج من كاثوليكية وله أولاد كاثوليك، يذهب معهم بانتظام إلى قداس يوم الأحد. كما أنه شُوهد عدة مرات فى كاتدرائية ويستمنستر بمفرده؛ مما يؤدى إلى التفكير فى أنه قد يتحول إلى هذا المذهب. وقد اعتاد بانتظام أن يصحب زوجته إلى المذبح للعشاء الربانى، حتى توقفت هذه الممارسة. وهى ضد القواعد الكاثوليكية، ولكنها شائعة بين الأنجليكان المتزوجين من كاثوليك. بناءً على طلب من الكاردينال باسيل هيوم. وقد أوضح هاترسلى أنه هو نفسه لم يكن كاثوليكيا، بيد أنه لم يبح بسر التحول المثير الذى يقول إن والده كان قسيسًا كاثوليكيا مشهورًا فى شيفليد قبل الحرب العالمية الثانية، وترك منصبه الكنسى ليتزوج والدة هاترسلى.

وكان الهياج الذى سببته مقالته قليلا لدرجة أن زميله صاحب العمود فى جريدة الجارديان مايكل هوايت، زعم أيضا أنه أول من لاحظ الشىء نفسه بعد ذلك بثلاثة أشهر. وكتب: «منذ أقل من جيل مضى كان وجود الكاثوليك بمعدل ٢,٥ على رأس كل حزب من الأحزاب الثلاثة الكبيرة لدينا قد يبدو أمرًا غير وارد، كانت السيطرة على هذا النحو ما تزال قوية، ولكن أحدًا لم يكن يتحدث عنها غالبا، للموروث البروتستانتى فى بريطانيا على كل الأركان والشقوق العليا فى المؤسسة».

مرة أخرى لم تكن هناك شهية فى الصحافة لإثارة الجدل الدينى، الذى قد يأخذه البعض على أنه علامة على نضج الجماهير، والبعض على أنه إثم وجهل. وهذا العزوف عن ملاحظة وجود الدين فى الحياة العامة حتى عندما يكون واضحًا كما اتضح أثناء رئاسة مارجريت تاتشر للوزارة. ففى وقت ما كان هناك ستة من اليهود العاملين فى وزارتها (أى ربع المجموع). لقد كان ذلك حقا أمرًا لا يستحق الذكر، حتى على الرغم من أنه لم يكن من الصعب ملاحظة علاقة معينة بين السياسات التى

كانت تنتهجها ومبدأ مراعاة مصالح العمل لدى الجماعة اليهودية البريطانية. وحسبما يقول جراهام تيرنر، الذي كتب في صحيفة «الديلي تلجراف»، فإن الملكة سألت ذات مرة، روبرت رونس، الذي كان كبير أساقفة كانتربوري آنذاك، عما إذا كان يعتبر مسز تاتشر امرأة متدينة، ويقال إنه أجاب: «أظن أنها عبرانية أكثر منها مسيحية».

* * *

والتحفظ الأمريكي حول تأكيد نفوذ الدين له أصول. وإذا تحقق المرء من وجود رغبة في التناول الأكاديمي القياسي لكبحها، فإن هذه الرغبة إنما تتأتى إلى حد كبير من رفض تسليم ملكية ماضي أمريكا إلى الحركات الدينية المذهبية والأصولية، وهي تواقة تماما للاستيلاء على هذا الماضي. والخوف غير المعلن يبدو أنه من التسليم طواعية بأن چورچ واشنطن أو توماس چيفرسون، مثلا، كانت لهما عقلية دينية في زمانهما، ربما تكون ذخيرة أكثر من اللازم لأولئك الذين لهم عقلية دينية اليوم. إذ إن لهم أجندتهم الخاصة. وسوف يصيحون بسرور: «كان چورچ واشنطن واحداً منا، ومن ثم فلتفعلوا ما نقوله»، حتى على الرغم من أن عقليته الدينية، في الحقيقة، لم تكن أكثر من أنه كان ابن عصره. ومن المحتمل أنه كان متدينا مثل أقرانه، وكان الدين بالنسبة له مسألة خاصة. وفي مقدمته لطبعة Everyman من كتاب «الصلوات العامة» Book of the Comman Prayer «لكنيسة انجلترا، يقدر «ديار ميد ماكو للوش» أن ثلثي الذين وقعوا إعلان الاستقلال وكذلك ثلثي الذين وقعوا الدستور الأمريكي كانوا من الأنجليكانيين الأمريكيين «الذين كانت حياتهم الدينية قد تشكلت بفعل كتاب الصلوات العامة سنة ١٦٦٢ م». وربما كان يضيف كذلك، والذين تشكل إحساسهم بالاستخدام الصحيح للغة الإنجليزية قد تشكل أيضا على نفس النحو، مع العودة كثيرا إلى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس (والتي يسميها الأمريكيون نسخة الملك چيمس).

وعادة ما يوصف واشنطن وچيفرسون، ومعهم چيمس ماديسون وبنيامين فرانكين وچون آدامز وكثيرون غيرهم، بأنهم يؤمنون بالرب وحده، ويفترض على أساس ذلك أنهم لا يكترثون دينيًا، ولو أنهم ليسوا معادين للدين، فهم أبناء عصر التنوير وورثة ڤولتير.

وهناك مفهوم عميق الجذور بأن أمريكا برزت من طيات الحرب ضد بريطانيا ومن ثم كانت صياغة جمهورية جديدة علمانية. ولكن عندما صار المؤرخون بالتدريج أكثر اهتماما بالمصادر منهم بالنظريات، فثمة رأى آخر ينتشر ببطء. كان هناك قدر كبير من الدين فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر. وقد تشبعت به الثقافة واللغة، وكما يكتب ج.س.د. كلارك فى كتابه «The Language of Liberty»، وهو أحد الكتب بالغة الأهمية والتأثير، وعلامة على هذا التغير بين المؤرخين:

«قامت دراسات كثيرة للسياسة فى بريطانيا وأمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر على أساس رؤية التنوير باعتباره عملية علمنة تحتضن كضرورة اتحادية الشك الأرستقراطى والمادية البورجوازية والتحرر البروليتارى من العلاقات الاجتماعية البروليتارية. ومع هذا فإن كلاً من هذه الأجزاء المكونة، واجه التحدى بشكل منفصل، وفى النهاية يتزايد التساؤل حول هذا التجمع نفسه... إذ إن تأييد النخبة للدين فى شكل الكنيسة القائمة كان قويًا، ويتم التأكيد عليه من فترة لأخرى فى الأزمات السياسية من عودة الملكية فى انجلترا إلى الثورة سنة ١٦٨٨م إلى التحدى الثورى الفرنسى فى تسعينيات القرن الثامن عشر وما تلاها. وقد فشلت الطبقات الوسطى فى المجتمع بشكل ملحوظ فى تطوير وعى جماعى، سواء كطبقة تجارية بورجوازية أو طبقة وسطى. وكان ارتباطهم بالكنيسة أو الانشقاق عنها أكثر وضوحًا حتى من ارتباط النخبة. وأخيرا إذا كانت نسب الحضور فى الكنيسة قد تدهورت فعلاً بين الناس بعد سنة ١٦٨٩م، فمن الواضح الآن أن هذا لا يمكن تفسيره ببساطة أو بسهولة على أنه تحرر فى نطاق نظام اجتماعى جديد. ولا شك فى أن الأشكال الأبوية قد عُدلت، بيد أن بنية السلطة والنظام كانت ما تزال مرتبطة بعالم عقلى يختلف جداً عن النزعة النفعية فى القرن التاسع عشر. وكانت الكتابة التى تنسب تقليديًا إلى حركة التنوير فى انجلترا، بعيدة تماما عن كونها علمانية، مغرقة بالجدل اللاهوتى والكنسى، ولم يكن الانشقاق هو الطريق السريع إلى العلمنة...».

وترى بعض الدوائر فى عبارة «إيمان الآباء المؤسسين بالرب وحده» مرادفًا لعبارة «أبعدوا أياديكم الجمهورية اليمينية عن التعديل الأول» ومن المفترض - وهناك دليل على هذا - أن جزءا من الأجندة الخفية للنزعة الجمهورية اليمينية الجديدة لن تجلب إعادة تعريف أمريكا باعتبارها مجتمعًا مسيحيًا على عكس ما وعد به التعديل من

الفصل بين الكنيسة والدولة، على الرغم من بعض الوسائل مثل تمويل الضرائب للجماعات التى ترعى الكنائس، والسماح بالصلوات فى مدارس القطاع العام. بل إنه من المفترض أن المزيد من الأجندة الخفية التى هى رد فعل، مثل تنغيص حياة الشواذ جنسيًا، تتربص فى الخلفية. وتجنيد الآباء المؤسسين باعتبارهم ممن يحبذون الدين، أو حتى باعتبارهم أصحاب رؤية دينية للهوية الأمريكية، يعتبر أكثر وسيلة فعّالة لقلب المناقشة لصالح هذا المفهوم عن أمريكا المسيحية. ويجدر الالتفات إلى أن مصطلح «مسيحى» فى هذا السياق قد اختطفه الأصوليون ليشير إليهم هم فقط.

وليس كل الشك فى تدين الآباء المؤسسين آتيا من المعسكر المعادى للدين وحده؛ إذ إن الچيزويتى چوزيف كوترسكى من جامعة فوردهام، وهو يكتب عن معتقدات چيفرسون فى مجلة Crisis الكاثوليكية الأمريكية محذراً قرّاءه:

«ومن الجيد أيضًا أن نتذكر أن چيفرسون وكثيراً من زملائه، ومنهم بنيامين فرانكلين وچورچ واشنطن وتوماس پين، كانوا جميعا موحدين (يؤمنون بالرب وحده دون الوحى والأنبياء) ولم يكونوا مسيحيين».

والرب عند هؤلاء هو السبب الأول الذى خلق العالم وأسس قوانينه الثابتة والكونية. ولكن إصرارهم على تصور هذا الرب مثل المالك الغائب يستبعد عن قصد أية إشارة إلى الرعاية الربانية أو التدخل الإلهى فى التاريخ. وكثير من فلاسفة التنوير الذين آمنوا بالربوبية كانوا ينتقدون على الدوام حتى إمكانية الوحى الإلهى، دعك من زعم المسيحية بضرورة مثل هذا الوحى.

«وبينما لا تحرز الربوبية الصارمة بانحرافها الصريح - كما أبرزه ڤولتير - سوى قدر قليل من التقدم فى أمريكا، فإن هناك صيغة توحيدية أكثر نعومة من الربوبية تميل إلى النضال على هذه الأرض. وعلى مر الزمان ضربت هذه العقيدة جذورها بثبات بين المثقفين الأمريكيين فى الفترة الاستعمارية، الذين اعتبروا أن المسيحية العلمانية الديانة الطبيعية التى يعتنقها أى شخص مثقف. ومثل الكتاب المقدس على طريقة چيفرسون الشهيرة فى القص واللصق، فإن هذا النوع من المذهب الربوبى يرفض العناصر الخارقة للطبيعة فى المسيحية، ولكنه حفظ مكانًا مهمًا للأخلاق المسيحية وكان باستمرار يقدم نغمة دينية مخلصة...».

ورفض «العناصر الخارقة للطبيعة فى الدين»، والتى بدونها، بالنسبة لشخص له

مثل عقلية كوتر سكى، لا يكون الدين دينًا حقًا على الإطلاق، كان ما اعتبره چيفرسون ومن سلك طريقه رفضًا للعناصر الخرافية فى الدين. وذلك يعنى فى الحقيقة رفض المعجزات، كما جاء فى النسخة التى طبعها چيفرسون [من الكتاب المقدس] والتى اعتنى بحذف المعجزات منها. وما لم يلاحظه كوترسكى هو أن إله عالم چيفرسون كان متدخلاً وصاحب معجزات كما ينبغى لأى إله، ولكن تدخلاته كانت من خلال يد العناية الإلهية الخفية. والواقع أن العناية الإلهية موجودة بكل مكان على حين أن المعجزات تحديدا نادرة، مثل الرب الذى يؤمن به من يؤمنون بالتدخل الإلهى.

هل هذه الديانة الأمريكية العلمانية أو المدنية بديلة عن المسيحية؟ إن الدليل يكشف عن أنها مطعمة بالمسيحية كما هى، وليست متبناة لكى تكون معارضة لها؛ إذ إن الرموز الواردة فى الكتاب المقدس قد استخدمت، بوعى وبلا وعى؛ لكى تؤكد فى أذهان الأمريكيين البروتستانت فيما بعد الثورة أن الانفصال عن انجلترا كان مقدراً من الرب. لقد كانت كلها جزءاً من الخطة الإلهية، وهى الخطة نفسها التى ساعدت الإسرائيليين القدماء على الهرب من فرعون تحت قيادة موسى. وكما أعلن توماس پين فى كتابه ذى التأثير الواسع «Common Sense»:

«لم يكن هناك أحد يرغب حقا فى المصالحة أكثر منّى، قبل يوم ١٩ أبريل ١٧٧٥ الحاسم، ولكن فى اللحظة التى عرف فيها الحدث الذى وقع ذلك اليوم، رفضت مزاج فرعون انجلترا العاتى المتجهم إلى الأبد، واستنكفت الدنىء، الذى من خلال لقبه «أبو الشعب» الذى يتظاهر به يستطيع أن يستمع دونما مشاعر عن ذبح شعبه وينام ملء جفونه ودماؤهم على روحه». [كان يوم ١٩ أبريل هو يوم الهجوم البريطانى على ليكسنجتون، ويعتبر أول افتتاح للحرب].

ويحتفظ قسم المخطوطات فى مكتبة الكونجرس بأوراق تتعلق بالاقتراح الذى قدم سنة ١٧٧٦م، وهى تظهر المدى الذى كان بنيامين فرانكلين وچيفرسون الرئيس الثالث - الذى يعد عادة الأكثر علمانية بين الآباء المؤسسين - يفهمان به الثورة الأمريكية بمصطلحات الكتاب المقدس. ففى ٤ يوليو ١٧٧٦ م، وهو نفسه يوم الاستقلال، حين الكونجرس فرانكلين وچيفرسون وچون آدامز «لكى يضعوا شعاراً للولايات المتحدة الأمريكية». وقد عدّل اقتراح فرانكلين القصة الواردة فى

الكتاب المقدس عن انشقاق البحر الأحمر. وفي البداية أوصى چيفرسون بـ «بنى إسرائيل في البرية تقودهم سحابة في النهار، وعمود من النار في الليل. . . ». ثم تبنى اقتراح فرانكلين وأعاد كتابته. ومراجعة چيفرسون اقتراح فرانكلين هو الذى قدمته اللجنة إلى الكونجرس يوم ٢٠ أغسطس، ولكن، حدث أنه لم يتابع طريقه به. وبالنظر إلى آراء چيفرسون المعادية للمعجزات، يستلفت النظر أن الصورة التى اختارها كانت إعجازية تماما، على حين كانت صورة فرانكلين، كما سنناقشها لاحقا، تشير إلى مجرد تدخل العناية الإلهية لإنقاذ بنى إسرائيل (ولا بد أنه كان مدركًا تمامًا لمختلف التفسيرات غير الإعجازية لانشقاق البحر، مثل تأثير الرياح والمد والجزر).

وعلى ما يقال فإن نمط الربوبية(*) بين النخب المتعلمة فى انجلترا وأمريكا لم يستمر طويلا فى البقاء؛ إذ إن نوعًا من الإحياء الدينى اكتسح العالم الناطق بالإنجليزية، ولا شك أن تجاوزاته أعطت النخب الفرصة للتعبير عن وجهة نظر تستهجن الحماسة الشعبية. فقد كان هناك سكون فى مستوى الإثارة الدينية بعد ما يسمى الصحوة الدينية الأولى-وهو سكون تصادف بشكل أو بآخر مع الفترة الثورية- قبل الصحوة الثانية، التى عمّقت الالتزام الأمريكى بالپروتستانتية الأنجليكانية خارج هذه المناطق، مثل نيو إنجلاند، التى لم تفقد حماستها أبدًا. وفى ذلك الحين حدث أن سلمت الأنجليكانية معظم الأرض التى استحوذت عليها إلى الثورة. (كان كثير من رجال الكنيسة الأنجليكان من التورى، ورحلوا إلى كندا). والشخصية الدينية لانجلترا وأمريكا، التى كانت على الدوام مختلفة فى التأكيد، بدأت تختلف نوعيًا؛ إذ إن النخب الأمريكية ربما تكون قد غازلت مذهب الربوبية باختصار، بيد أن التفلسف المجرد ليس، ولم يكن أبدًا، مما يعجب الأمريكيين. ولاحظ أليكسيس توكيڤيل الذى جاب أنحاء أمريكا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى كتابه «Democracy in America»: أظن أنه لا يوجد فى أى بلد فى العالم المتحضر اهتمام أقل بالفلسفة مما هو حادث فى الولايات المتحدة. فليست هناك مدرسة فلسفية خاصة بالأمريكيين؛ وهم يهتمون اهتمامًا قليلاً جدًا بالمدارس التى تنقسم أوروبا إليها، وأسماؤها لا تكاد تكون معروفة لديهم».

(*) الربوبية هى الإيمان برب للكون، لا يُشترط أن يكون طبقًا لما جاء فى الكتاب المقدس-المترجم.

وغالبًا ما يتم التعامل مع مذهب الربوبية الذى شاع أواخر القرن الثامن عشر فى أمريكا على أنه السابقة التى خرجت منها العلمانية. وهى غالبا ما تعرف بأنها قيم التنوير، التى تم الأخذ بها فى الديانة العلمانية الجديدة للماسونيين الأحرار التى ينتمى إليها كثير من الآباء المؤسسين. وقد يكون أقرب للحقيقة أن نقول، مع أخذ التجربة الإنجليزية فى الحساب هنا أيضًا، إن مذهب الربوبية قد أفرز مذاهب عديدة ربما يكون أكثرها حظًا فى الاعتراف ليس هى اللا أدرية العلمانية وإنما البروتستانتية المتحررة (فى المذهب الأنجليكانى خاصة). كان هذا الفرع من التيار العام للمسيحية هو الأكثر انفتاحًا لاكتشافات البحث النقدى فى الكتاب المقدس، الذى كان آخذا فى الظهور فى ألمانيا بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وهى الأرضية التى قام عليها رفض الدراسات لقصص المعجزات. وكان هذا الفرع من المسيحية الذى واجه أقل قدر من الصعوبة فى تناول أعمال تشارلز داروين، كما أنه كان على أتم الاستعداد للموافقة على أن روايات الخلق فى سفر التكوين خرافات وأساطير.

واللاهوت المتحرر، مثل مذهب الربوبية، يميل صوب التوحيدية (وهو مذهب لطائفة تنكر الثالوث)؛ لأنه لا يستريح لعقيدة أن المسيح هو ابن الله المتجسد. ونوع الديانة التى يستهجنها التحرريون أكثر من غيرها هى الكاثوليكية الرومانية؛ بسبب عقيدتها ومعجزاتها وثقتها، والمذهب الإنجيلى للمحافظ (والمعروف كذلك باسم الأصولية البروتستانتية) بسبب ثقته فى الكتاب المقدس واعتماده عليه، وإصراره على «قفزة العقيدة» أو تجربة شخصية للخلاص، التى تبدو على النقيض من المبادئ العقلانية. وثمة شىء واحد يمكن أن نكون متأكدين منه هو أن أولئك الآباء المؤسسين لأمريكا والذين أطلق عليهم اسم «الربوبيين»، أيًا كان قدر التبرير، لابد وأنهم كانوا يتفقون صراحة مع البروتستانت الليبراليين فيما كانوا يكرهونه أكثر من غيره.

وسواء كان جورج واشنطن ربوبيًا «ناعمًا»، أو لم يكن، فإنه كان على إيمان قوى بالرعاية الإلهية، أى يد الرب الخفية التى توجه شئون الناس صوب صالحهم. وفى خطابه الافتتاحى الأول رئيسًا للولايات المتحدة قال مثل هذا وأكثر:

«سيكون من غير الملائم بتاتًا أن نحلف فى هذا الفعل الرسمى الأول تأييدى الحماسى لأن الرب العظيم الذى يحكم العالم، والذى يرأس مجالس الأمم، والذى يمكن لمساعداته الرعوية أن تعوض كل نقص إنسانى، وأن بركاته قد تكرس لحرية

شعب الولايات المتحدة وسعادته، حكومة أسسوها بأنفسهم لهذه الأغراض الأساسية، وقد تساعد كل أداة استخدمت فى إدارتها لإنجاز الوظائف التى تظللها رعايته بنجاح. وفى تقديم الطاعة والولاء للخالق العظيم الذى خلق كل خير عام وخاص، أؤكد لنفسى أنه يعبر عن عواطفكم مثلما يعبر عن عواطفى، وعواطف الإخوة المواطنين على نطاق واسع. وليس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شئون العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة. فكل خطوة تقدموا بها لتحقيق شخصية وطن مستقل تبدو أنها كانت متميزة بنوع من الرمز الدال على الرعاية الإلهية، وفى الثورة المهمة التى تم إنجازها بنظام حكومتهم المتحدة، فإن التشاور الهادئ والموافقة الطوعية لهذا العدد الكبير من الجماعات المتمايزة والتى نتج عنها الحدث، لا يمكن أن يقارن بالوسائل التى تم بها تأسيس معظم الحكومات، دون الرجوع إلى الامتنان الدينى، مع توقع متواضع للبركات التى يحملها المستقبل والتى يبدو أن الماضى قد بشّر بها».

كانت العناية الإلهية أقوى فعلاً من المعجزات. فبدلاً من أن تكون شديدة الندرة ومرتبطة بحوادث معينة، مثلما هى الحال فى الكاثوليكية، فإن مفهوم العناية الإلهية الرحيمة غطى كل شىء تقريبًا. فكل طفرة محظوظة تصبح تدخلاً إلهيًا. هل ساقت الريح السفن الإسبانية إلى الصخور سنة ١٥٨٨؟ لقد كان ذلك بفعل العناية الإلهية. هل نجا المستوطنون البيوريتان الأصليون من أول شتاء؟ كان الفضل فى ذلك للعناية الإلهية. هل قضى الجيش الناشئ على قوات الملك؟ لقد كانت العناية الإلهية وراء ذلك. هل عاش جيش واشنطن المهلهل أثناء محنته فى ڤالى فورج؟ لقد كان هذا أيضًا من فعل العناية الإلهية. وفى لاهوت العناية الإلهية لا يتدخل الرب سوى بهذه الطريقة لصالح العادل والمستقيم. أو إذا قلبنا المعادلة، يكون الرب جانب الرابح وبهذا يكون «الحق قوة»(*). هذه الاعتقادات مكونات مهمة ليس بالنسبة للرؤية الأصولية للعالم فقط، فلم تكن مرفوضة ممن يسمون أنصار مذهب الربوبية فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر، والذين كانوا على قناعة تامة بأن الرب الذى لم يكونوا يعرفونه تمامًا يقف إلى جانب أمريكا. وهذه بطبيعة الحال طريقة إنجليزية خالصة فى النظر إلى الأمر. وإذ كانوا هم الشعب المختار، والرعاية الإلهية إلى جانبهم، فإن هذا كله جزء من الشىء نفسه.

(*) تلك ترجمة القول الأمريكى المأثور: Might is Right - المترجم.

والجدل الحي في الولايات المتحدة حول المعتقدات الدينية للآباء المؤسسين ليس في الحقيقة جدلاً حول الحقيقة التاريخية بحد ذاتها، ولكن حول معركة للسيطرة على الذاكرة الجماعية الأمريكية، في سبيل السيطرة على طريق أمريكا في المستقبل على النحو المتصور. وكل من يريد طعمًا لهذه الرفاهية الثقافية لا يحتاج سوى أن يدخل على أحد المواقع العديدة في شبكة الإنترنت المكرسة لأحد جانبي هذا النزاع المستعر. وكل تصريح ديني من شخص مثل جيفرسون يتم حشده على موقع واحد، وكل ما ينطق به ضد الدين يتم حشده على موقع آخر. ومن الصعب تصوير أن الإنجليز يحصلون على شيء مماثل في إثارته مثل المعتقدات الدينية لدوق ويلنجتون، مثلاً، ولكن ربما كان تقيًا في العلن وشكاكًا في السر، تمامًا مثل رجال الدولة الأمريكيين الذين تستمر المعركة حولهم. هذه هي الكيفية التي كان عليها مثل هؤلاء الرجال وما يزالون عليها إلى حد كبير. وإذا كان النوع الأنجلو سكسوني من البروتستانتية، كما قال أحدهم ذات مرة، يميل إلى أن يتسم بالتخفيف، فإن هذا لا يحميها من التعصب الشرس.

ويبدو الحكم المستقر للمؤرخين المحترفين الآن على أنه يقرر أن الأمريكي المتوسط في الفترة الثورية، بما في ذلك المشرع الأمريكي العادي، كان شخصًا متدينًا، على الأقل من الناحية السطحية للعقيدة. أما مدى عمق ما نسميه اليوم روحانياته فقد يكون موضوعًا لمزيد من الجدل. بيد أن تلك كانت أوقات تدين بشكل عام؛ إذ كان التدين متوقعًا. وقد استنتج جامعو معرض مكتبة الكونجرس سنة ١٩٩٨م، والقائم على أساس النصوص الرسمية وغير الرسمية للفترة، من الأدلة المعروضة:

«الكونجرس القاري الكونفدرالي، هيئة تشريعية حكمت الولايات المتحدة من ١٧٧٤م إلى سنة ١٧٨٩م، وقد احتوى على عدد غير عادي من الرجال المتدينين بعمق. وكمية الطاقة التي استثمرها المجلس في تشجيع ممارسة الدين في الوطن الجديد فاقت تلك التي أنفقتها أية حكومة وطنية أمريكية تالية. وعلى الرغم من أن مواد الاتحاد الكونفدرالي لم تمنح السلطة رسميًا إلى الكونجرس بأن يشغل نفسه بالدين، فإن المواطنين لم يعترضوا على مثل هذه الأنشطة. وغياب الاعتراض على هذا النحو يشي بأن كلاً من المشرعين والعامة اعتبروا أنه من المناسب للحكومة الوطنية أن تطور المسيحية غير المسيطرة وغير المجادلة.

وعين الكونجرس قساوسة له وللقوات المسلحة، وراقب نشر الكتاب المقدس، وفرض الأخلاقيات المسيحية على القوات المسلحة، كما منح الأراضى العامة لنشر المسيحية بين الهنود الحمر. والإجازات الوطنية فى عيد الشكر وفى يوم التواضع، والصوم والصلاة، كانتا تعلنان من قبل الكونجرس مرتين سنويا على الأقل طوال الحرب. وكان الكونجرس يسترشد «بلاهوت ميثاق»، وهو ملهب إصلاحى، عزيز بصفة خاصة على قلوب البيوريتان فى نيوانجلاند، يقول إن الربّ ربط نفسه بميثاق مع أمة وشعبها. وهذا الميثاق اشترط أنهم «قد ينعمون بالرخاء أو تحل عليهم النقمة» وفقًا لطاعتهم العامة أو عصيانهم العام كما تظهر. وكانت الحروب والثورات، وفقًا لهذا، تعتبر نقمة، عقابًا إلهيًا على الخطايا يمكن للأمة أن تنقذ نفسها منه بالتوبة والإصلاح.

وأول حكومة وطنية للولايات المتحدة كانت مقتنعة بأن الرفاهية العامة فى أى مجتمع تعتمد على حيوية ديانته. ولا شىء سوى روح من الإصلاح الكونى بين كل طبقات ودرجات مواطنينا، حسبما أعلن الكونجرس إلى الشعب الأمريكى، «سوف يجعل منا شعبًا مقدسًا بحيث قد نصبح سعداء».

وفى افتتاحية كتاب «American Exceptionalism»، يتناول سيمور ليبست اعتراضًا على التأكيد على العوامل الدينية فى مناقشة الشخصية الخاصة للمصير الأمريكى (والهوية الإنجليزية بالتوازى) مؤداه أنها ربما كانت عوامل مهمة ذات مرة، بيد أنها لم تعد كذلك.

«بعض الذين ينتقدون التأكيد على الاستثنائية الأمريكية كطريقة لفهم الحوادث الجارية والمستقبلة، قد تساءلوا عن الإصرار على أن العوامل التاريخية المرتبطة باستيطان المستعمرات وأيديولوجية المؤسسين مستمرة فى التأثير على السلوك والقيم الأمريكية. . . . [والأيديولوجية التى يشير إليها هى المذهب البيوريتانى بالطبع]. لقد تعامل ماكس ڤيبر مع هذا الموضوع بطريقة ممتعة وذكية. . . . إذ إنه اقترح أن التاريخ يعمل لحسم المستقبل بنفس الطريقة التى يحسم بها الزهر لعبة ما. ووفقا لڤيبر، بفهمه أن تاريخ أمة ما يبدأ مثل لعبة لم يتم رمى الزهر فيها فى البداية، بيد أنه لا يلبث أن ينحاز إلى الاتجاه الذى يأخذه أى ناتج من الماضى. وهو ناتج له

شبيه بالطريقة التى تتشكل بها الثقافة. وفى كل مرة يظهر فيها الزهر برقم محدد تتزايد احتمالات ظهور هذا الرقم ثانية».

وأكثر مؤلفات ڤيبر تأثيراً "The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism» كان مأخوذًا من ملاحظاته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن ألمانيا، ومؤداها أنه فى أكثر الأجزاء كلڤينية [أى أتباع چون كالڤن] فى البلاد كانت الرأسمالية أكثر نجاحًا. وقد لاحظ أن المذهب الكالڤينى قد ترك تأثيره على شخصيات أتباعه، بفرض أعباء روحية وعاطفية مؤلمة عليهم، وفوق هذا وذاك خوفًا من اللعنة. فالعمل الشاق وإنكار الراحة أو المتعة، هما العلامتان الدالتان على «الأخلاق البروتستانتية»، وأصول رأس المال التى تم تحصيلها كانت تعتبر علامة على موافقة الرب، ومن ثم كانت علامة على أنه ربما أمكن تجنب اللعنة. وحيثما كان المذهب الكالڤينى سائدًا، كانت هذه الفلسفة تشكل ثقافة المجتمع بأسره. وأولئك الذين تم إدخالهم فى تلك الثقافة كانوا يتشكلون نفسيًا بها، سواء كانوا يقبلون عن وعى مذاهب كالڤن الدينية المحددة أم لا. فما أن يتم رمى الزهر، يظل يرمى باستمرار. وربما كان يتكلم عن نفسه أيضا: فهو متشكك فى الأمور الدينية بينما كان أبوه كالڤينيًا. وحتى إذا لم يعد هناك كالڤينيون يؤمنون بهذا المذهب على الإطلاق، فإن ثقافة تشكلت بفعل الكالڤينية سوف تكون جادة فى العمل ومتوجسة من المتعة، كما أنها ستكون فى الوقت نفسه ثقافة طماعة ومذنبة. ويمكن للقارئ أن يحكم بنفسه إلى أى مدى يصدق هذا على انجلترا أو أمريكا فى أيامنا هذه.

كان الكالڤينيون فى الواقع أصوليين يتبعون الكتاب المقدس حرفيًا بالمعنى الكامل للمصطلح؛ إذ كان الدين يتعلق بالحياة كلها، وكان الكتاب المقدس مرجعهم الوحيد فى مسائل الدين. وخريطة الدين التى كانت مفتوحة أمامهم بأفكار چون كالڤن (١٥٠٩ - ١٥٦٤م)، الأكثر راديكالية بين كل المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر، كان مركبًا ومعذبًا، بل ومصدر تهديد. وكانت المطالب التى تفرض على المسيحيين ضاغطة. ولكى تعرف ما يطلبه الرب من المرء، كان من الضرورى أن تبحث فى الكتاب المقدس بدقة وتهتم دومًا نهاية حول معنى كل فقرة. أما الحركة البروتستانتية الموازية والتى بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)

فلم تكن أقل تركيزاً على الكتاب المقدس. إذ كانت لها أيضاً مطالب ضاغطة. وقد اتفق كل منهما على أن الإنسانية تلقت رسالتها عن الخلاص مباشرة من صفحات كلمة الرب وليس من خلال القساوسة والكنيسة، ووافق كلاهما على أن البشرية نفسها كانت داخلياً شريرة ومحرومة وعاجزة - بدون مساعدة الرب - عن القيام بأى فعل طيب. وقد جلبت المسيحية البروتستانتية إلى مركز الانتباه المسيحى، وقد سهل هذا كثيرا حقيقة أن صناعة الطباعة - الجديدة نسبيا - قد جعلت من الممكن أخيراً إنتاج الكتب على نطاق واسع. ويكاد يمكن للمرء أن يقول إن الإصلاح كان عليه أن ينتظر حتى اختراع الطباعة قبل أن يحدث. فبدون نسخة متاحة من الكتاب المقدس فى اللغة المحلية، كان الاعتماد على حكمة القساوسة وتوجيهاتهم أمراً حتمياً.

كانت الكنيسة الكاثوليكية دائماً تغذى المؤمن بمحتويات الكتاب المقدس من خلال مصفاة تفسيرها الرسمى الخاص. وكانت النظرية هى أن كمال الديانة المسيحية متضمن فى تعاليم الكنيسة الرسمية، وكان الكتاب المقدس رفيقاً لهذا، بغرض الإيضاح، والتنوير، والحض على الفضيلة. ولم يكن يعتبر بمثابة المصدر الأولى للعقيدة، على الرغم من أنه كان هناك مبدأ مقبول بأن تعاليم أية كنيسة لا يجب أن تتعارض مع العهد الجديد. كانت الكنيسة نفسها هى التى قررت، فى القرن الرابع، أى النصوص تنتمى إلى النسخة الرسمية، أو القانون الكنسى، وأيها لا تنتمى. وفى دائرة معارف اللاهوت «The Encyclopedia of Theology» وصف لخاتمة عملية طويلة من الجدل والقرار على النحو التالى:

«فى سنة ٣٦٧ حدد أثناسيوس الكتب السبعة والعشرين للعهد الجديد، بالإضافة إلى أسفار العهد القديم، باعتبارهما سوياً يحتويان على القانون الراسخ (ليس لأحد أن يضيف شيئا أو يحذف شيئا منهما . . .) وفى الفصل الثانى من مرسوم جيلازيوس الذى يرجع إلى مجمع روما سنة ٣٨٢ تم تحديد الأسفار السبعة والعشرين التى يضمها العهد الجديد، وتم التأكيد على هذا سنة ٤٠٥م بخطاب من البابا إنوسنت الأول وكذلك من قبل للمجامع المسكونية التى عقدت فى أفريقيا، هيبو رجيوس (٣٩٣) وقرطاج (٢٩٧ ، ٤١٩م). وبعد القرن الخامس لا توجد مراسيم جديدة بشأن القانون الكنسى. . . . ».

وإلى هذا المدى فليس من الشطط أن نتحدث عن الكتاب المقدس بوصفه من خلق الكنيسة. لقد كانت السلطات الكنسية، في القرارات التي أوردناها سابقًا، هي التي رفضت بعض النصوص وقبلت البعض الآخر، وفقًا لتوافقها أو تناقضها مع الديانة الصحيحة أيامها. وثمة جاذبية مسبقة «للكتاب المقدس» باعتبارها المصدر الأسمى للعقيدة التي يمكن بها الحكم على الكنيسة نفسها، قبل سنة ٣٦٧م، وهو أمر ليس منطقيًا ببساطة. هذه الصعوبة عاودت الظهور على السطح في القرن السادس عشر، حينما وضع المصلحون البروتستانت الرئيسيون من جديد أصول القانون الكنسي، كما أطلق على قائمة الأسفار التي اعتبرت أصيلة روحيًا، ونبذوا عدة أسفار (باعتبارها مزيفة: أبو كريفا) لم تكن ضمن القانون العبراني الأصلي كما حددته السلطات اليهودية، ولكن الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية قبلتها منذ ألف سنة مضت. وكان السبب في هذا راجعًا جزئيًا إلى أن المصلحين لم تعجبهم العقائد التي ظهر أن الأسفار المرفوضة كانت تحتويها.

وبعد حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، اتهمها البروتستانت الذين كانوا معادين للكنيسة الكاثوليكية بأنها تشوش معنى نص الكتاب المقدس، بحيث لا تشمل محتوى التعاليم الكاثوليكية. وقد زعموا أن هذا هو السبب في أن الكنيسة كانت عازفة تمامًا عن السماح بالاطلاع المفتوح على الكتاب المقدس كما عارضت نشر الترجمات الإنجليزية. ولا شك في أن هناك قدرًا من الحقيقة في هذا. بيد أنه لم يعد ممكنًا وجود تفسير موضوعي غير منحاز للكتاب المقدس كما هو الحال بالنسبة لمسرحيات شكسبير. وحتى مع وجود أعظم المقاصد النبيلة فإن نفس النص يمكن أن يعني عدة أشياء مختلفة. ومن ثم فإن تلك الأجزاء من الكتاب المقدس التي أولتها الكنيسة الكاثوليكية أهمية هامشية فقط، يمكن الآن أن تؤخذ بجدية على أنها كلمة الرب كما يمكن التدبر في معناها مجددًا. وكان هذا مهمًا بشكل خاص في تلك القصص التي يرويها العهد القديم والتي فسرتها الكنيسة على أنها تتنبأ وتمهد لقدوم المسيح ووجود الكنيسة ذاتها فيما بعد.

ولم يشعر البروتستانت أن عليهم أن يقبلوا ذلك التفسير، حتى لو عرفوا به. فقد

كان بوسعهم أن ينظروا إلى تلك الفقرات مجدداً : وكان كل شخص يمكن أن يفسر الكتاب المقدس بطريقته. ولم يكن بوسع البروتستانتى الطيب تحديدا أن يقبل تفسيرات لفقرات معينة من العهد القديم اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية توقعًا لاهتمام الرب بصالحها. وعلى العكس، فقد وجدوا نبوءات مختلفة تمامًا (أساسًا فى العهد الجديد) تخص الكنيسة الكاثوليكية : إنها كانت وكيل الشيطان الذى يجب محاربته وهزيمته قبل نهاية الزمان. وبغض النظر عن التهمة البروتستانتية العامة بأن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخفت نص الكتاب المقدس عن الناس ؛ لأنها بوضوح قايضت تعاليم الكنيسة، فهى تهمة جدلية أكثر من كونها حكمًا تاريخيًا. وهناك مساحات حيث كان المعنى الدقيق لنص الكتاب المقدس محل نزاع ساخن بين المصلحين البروتستانت والمصلحين الكاثوليك المضادين. ولكن حيث إنه كان واضحًا لأى قارئ عارض - لو سُمح له بأن يطلع على النص - لا يمكن لأحد أن يقول إن الكنيسة قد أخطأت. والحكم على تعاليم الكنيسة من خلال الكتاب المقدس ممارسة أكثر صعوبة من هذا. وهناك نصوص عديدة يبدو معناها الأكثر وضوحًا هو المعنى المفضل تقليديًا من جانب البروتستانت، ولكن نصوصا أخرى تميل صوب التفسير الكاثوليكى بدرجة أكبر.

وما زعم المصلحون أنهم وجدوه فى الكتاب المقدس كان صيغة أكثر تبسيطًا من المسيحية، التى أخذت من التقوى المتزايدة عبر العصور، فكانت لها جاذبية قوية متجددة. وكثير من فروض الدين التى فرضت على الناس وفقًا لمذهب الكنيسة إما غابت تمامًا أو تم التلميح إليها فقط فى الكتاب المقدس. وبينما قالت التعاليم التقليدية : إن هناك سبعة أسرار مقدسة، كانت الأدلة المستمدة من الكتاب المقدس تشير فقط إلى اثنين. وإذا ما كانت الكنيسة هى المفسر الأصيل للمسيحية، ومرشداً يعتمد عليه للوصول إلى المذهب الصحيح، فلا شىء من هذا يهم إذن. وإذا كان الكتاب المقدس هو المرشد الصحيح الوحيد، من ناحية أخرى، فإن الكنيسة تبقى متهمة بتشويش الإنجيل لكى يناسب أغراضها الخاصة. وعلى سبيل المثال فإن الممارسات الكنسية مثل ربط العلمانيين بالعشاء الربانى فى نوع واحد فقط، هو النبيذ، يبدو تناقضا صريحًا مع كلمة الرب. بينما كانت الأخلاقيات الشعبية فى

العصور الوسطى تعتمد على مثل هذه الآليات فى التذكرة بالرذائل والفضائل، فإن المسيحية الإصلاحية المعتمدة على الكتابْ المقدس قدمت العبارات المجردة والبسيطة للوصايا العشر. بينما كانت المسيحية الكاثوليكية فى العصور الوسطى معتمدة بقوة على الطقوس والصور والمساعدات المرئية. فإن المسيحية البروتستانتية التى أعقبتها اعتمدت إلى حد كبير للغاية على النصوص.

وإذا لم يكن هذا شيئا آخر، فقد كان حافزاً رئيسًيا على انتشار التعليم، على الرغم من أنه على مدى فترة طويلة كان هناك انحياز لصالح تعليم الناس العاديين القراءة دون الكتابة. والخوف الكامن لدى البروتستانت وخاصة البيوريتان فى انجلترا وأمريكا فى النصف الأول من القرن السابع عشر، كان مبعثه أن الديانة القديمة سوف تفرض من جديد عليهم بسلطة الدولة، وسيكون ممنوعًا عليهم العبادة طبقًا للشكل الجديد الذى اختاروه للمسيحية. وبما أن الديانة القديمة لم تكن خاطئة وحسب وإنما كانت هى نفسها بوابة الجحيم، من وجهة نظرهم، فإن التهديد كان مميتًا. وذكرى اضطهادات البروتستانت تحت حكم مارى تيودور فى منتصف القرن السابق كانت محفوظة حية تمامًا من خلال قراءة كتاب فوكس «Book of Martyrs» وهو الكتاب الوحيد، بغض النظر عن الكتاب المقدس، الذى قيل إنه يمكن أن يوجد فى كل كنيسة ومنزل فى المملكة. وربما كان عملاً باهراً من أعمال الدعاية أكثر منه دراسة تاريخية دقيقة، ولكن أولئك الذين قرأوه صدقوه حرفيًا. هذا، بالإضافة إلى التقارير الحية (والتى تحمل قدراً من المبالغة) عن اضطهاد البروتستانت تحت ظل محاكم التفتيش الإسبانية، أقنعت أجيالاً من البروتستانت الإنجليز والأمريكيين بأن الكاثوليكية الرومانية كانت هى العدو القاسى الشرير لكل شىء عزيز عليهم.

ومع فهم الحقيقة متأخراً، يبدو أن الجانبين كانا يختلفان أشد الاختلاف فى مواقفهم من الكتاب المقدس عندما يتعلق الأمر بفهمهما لعلاقة العهد القديم بالحوادث اللاحقة. وهو يتألف إلى حد كبير من سرد زمنى متتابع لتاريخ بنى إسرائيل، شعب الرب، أمة أوقبيلة، أو مجموعة من القبائل، مكثت زمنًا طال أم قصر سويًا كمجتمع مرئى، خلال كل ما مر بهم من محاولات مختلفة. واعتقدت

الكنيسة أنها هي نفسها صارت شعب الرب، ولكن التشابه مع بني إسرائيل كان أبعد ما يكون عن الكمال. فالكنيسة لم تكن أمة ولا مجتمعًا مرئيًا يتمركز في مكان واحد. لقد كانت جماعة دينية، منتشرة، وموجودة عبر كل الأمم في العالم المعروف. وبما أن الكنيسة لم تكن أمة فإنها لم تفعل الأشياء التي تفعلها الأمم، مثل الاحتفاظ بالجيوش وخوض الحروب، أو غزو الأراضي، كما فعل بنو إسرائيل القدماء. فقد كانت معركتها روحية. وإذا ما كانت تريد النوع الآخر، مثل الزعم بتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، فقد تعيّن عليها أن تطلب من الأمراء الكاثوليك أن يحاربوا من أجلها. ولكن البروتستانت رأوا العهد القديم بصورة أكثر حرفية. وبالنسبة لهم كانت إسرائيل الجديدة أمة مثلما كانت إسرائيل القديمة بالضبط. وبينما كانت كنيسة العصور الوسطى قد أضفت مسحة روحانية على رسالة العهد القديم، وتعاملت مع معظم ما جاء به على أنه مجاز مركب أومزاعم وادعاء، فإن البروتستانت أخذوه بقدر أكبر من الحرفية، وتعاملوا معه بقدر أكبر من السياسة.

وهكذا فإن الروايات الكبرى التي يسردها العهد القديم قد تجسدت دائما بقوة في المذهب البروتستانتي. وقد اقترح بعض المؤرخين أن الأمريكيين - الذين يفتقرون إلى تاريخ طويل يخصهم - كانوا أسعد ما يكونون في تبني تاريخ بني إسرائيل القدماء لتعويض هذا النقص. وقبل هذا، كان بوسع البروتستانت الإنجليز الأوائل أن يجدوا مزية مشابهة. وتناول تاريخ بني إسرائيل باعتباره نوعًا من ما قبل التاريخ الإنجليزي شتت الانتباه عن ذلك «الما قبل التاريخ» الذي هو أقرب إليهم، أي تاريخ انجلترا كبلد كاثوليكي (والذي كان البيوريتان ينكرونه أو يخجلون منه). وعندما قام رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج بتولي رئاسة الحكومة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور سنة ١٩١٧م، الذي وعد اليهود بوطن قومي في الشرق الأوسط، قال إنه ربما كان يعرف عن ملوك بني إسرائيل أكثر مما يعرف عن ملوك انجلترا. وكان لابد لهذا أن يعكس حالة عقلية شائعة جدا بين معاصريه، لا سيما أولئك الذين على شاكلته.

* * *

(٢)
القدس الجديدة

لو أن أى زائر متحذلق من المريخ كان يتجول فى كنيسة ويستمنستر يوم الثلاثاء ٢ يونيو ١٩٥٣م، فلا بد وأن يدرك بسرعة أن ثمة احتفالاً عامًا كبيرًا على وشك أن يحدث. فقد كان هناك استعداد لحفل تتويج. ومع الوقار اللازم، كان ثمة حاكم جديد على وشك أن يقسم اليمين، ويجلس على العرش، ويضع التاج على رأسه، وتُؤدى له مراسم الولاء والطاعة، ثم يكال له المديح علنا. ولو أن تفتيشا جرى لعدة ثوان، لكشف لرجل الفضاء القادم من المريخ أن ما كان على وشك البداية كان قداسًا دينيًا، على الرغم من أن الاستعراض التمهيدى فى الخارج يكاد يكون عسكريا خالصًا. إذ إن الاحتفال كان به قدر كبير يتعلق بالرب ـ من خلال العهود التى قدمت له، بأن يكونوا مؤمنين به، ويصلون له، ويحمدونه ـ أكثر مما يتعلق بالسياسة. وكان الوزراء الرئيسيون الحاضرون والذين تتركز عليهم الأضواء وزراء دينيين، أما وزراء الحكومة فكانوا مدفونين فى مكان ما داخل زحام المتفرجين، ولم يكن لهم أى دور بالفعل فى الاحتفال. فهل يُحتمل أن هذه كانت ثيوقراطية؟(٥)

وربما يكون القادم من المريخ قد قفز إلى استنتاج مضلل آخر: **أن الأمة التى يتم تتويج ملكها فى احتفال كانت تسمى إسرائيل، وأن عاصمتها القدس؛ لأن الخدمة بدأت بصلاة من سفر من الكتاب المقدس الخاص ببنى إسرائيل القدامى من الافتتاحية المزمور رقم ١٢٢:**

«فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها، حيث صعدت الأسباط، أسباط

(٥) حكومة دينية.

الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب. لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء كراسى بيت داود. اسألوا سلامة أورشليم. ليسترح محبوك. ليكن سلام فى أبراجك راحة فى قصورك. . . ».

هذا الغموض بين لندن ـ انجلترا، والقدس ـ إسرائيل، عاد يتكرر فى عدة نقاط فى الاحتفال. حقًا كانت خدمة تتويج الملكة إليزابيث الثانية تتطلب منها أن تقسم اليمين الخاص بالمنصب، والذى كانت بدايته على الأقل متطابقة تمامًا مع عالم لندن انجلترا الحقيقى. وفى الجملتين الافتتاحيتين من القسم الذى أقسمته، أولا: أنها سوف تحكم البلاد بحكمة تحت سلطتها. وفى ذلك الوقت كانت هذه البلاد تتضمن الأجزاء الباقية من الإمبراطورية (بما فى ذلك الكثير فى أفريقيا)، والأملاك القديمة التى تتحدث الإنجليزية فى كندا وأستراليا وأفريقيا وسيلان، وكذلك بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية، وثانيا: أقسمت على أنها سوف تنشر العدل برحمة. وكل القضاة فى كافة المحاكم كانوا يجلسون باسم التاج فى جميع هذه الأراضى، وكانت الملكة تقسم بهذا لصالح كل واحد منهم. وهم بدورهم أقسموا على الولاء لها. وبهذا تصبح الرحمة جزءًا من القانون العام.

ثم رحلت الحقيقة المعاصرة وهبطت النزعة التصوفية الملوكية مرة أخرى. والجمل الأربع الباقيات ـ وهى الجزء الأكبر من القسم الذى تختتم به التزاماتها كملكة ـ تلزمها بأن تدافع عن ديانة الدولة فى أحد الأجزاء، على الرغم من أنه هو الجزء الرئيسى من هذه الأراضى الكثيرة، أى انجلترا. وكان هناك شىء مهم يقال عن شخصيته الدينية الفريدة، شىء يمكن فهمه على أفضل وجه فى ضوء الإشارات المجازية (أو الميتافيزيقية) إلى بنى إسرائيل التى أوردناها بالفعل. بيد أن شيئا كان مشفرًا، وكان يتطلب أيضا معرفة جيدة بتاريخ الصراع الدينى فى انجلترا على مدى القرون الخمسة الأخيرة.

وبينما كان كبير أساقفة كانتربورى، الدكتور جيوفرى فيشر يتولى القداس، سألها بشكل رسمى: «هل ستحافظين بأقصى قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة

على استقرار كنيسة انجلترا، والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالى، كما أرساها القانون فى انجلترا؟ وهل ستبقين كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة فى انجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن أفعل هذا كله».

ولابد أن الملكة كانت مدركة تمامًا لأن كبير أساقفة كانتربورى الذى أخذ عليها قسمها البروتستانتى والذى كان سيتوجها، چيوفرى فيشر، قد عينه فى منصبه هذا أبوها چورج السادس. ولابد أنها كانت مدركة أيضًا أنه على الرغم من الكلمات المسطورة على الصفحة، فلا تستطيع هى أو هو فعل أى شيء من الأشياء التى أقسمت لتوها على أن تفعلها؛ إذ إن السلطة السياسية الحقيقية كانت مستقرة فى مكان آخر - فى أيدى البرلمان والسياسيين الذين كانوا مجرد مشاهدين للاحتفال. والواقع أنه لم يكن چورج السادس - فعلا - هو الذى قرر أن الدكتور فيشر هو الرجل المناسب لتولى منصب رئيس أساقفة كانتربورى وكبير أساقفة انجلترا كلها بعد موت وليم تمبل سنة ١٩٤٤، وإنما كان الذى قرر ذلك هو رئيس وزرائه آنذاك ونستون تشرشل.

ومع هذا فإنها كانت تؤدى قسمًا عامًا بأنها، باعتبارها حاكمة، مسئولة عن الصالح الدينى والروحى لشعب انجلترا - تماما مثلما كان الملك سليمان مسئولاً عن شعب إسرائيل - كما هى مسئولة عن مصالحهم الدنيوية والمادية. ومع هذا فإن قدرتها المباشرة على التأثير فى الصالح الروحى والدينى للشعب كانت هامشية. فمن حيث الممارسة ليست بوسعها أن تفعل ما هو أكثر من أن تكون قدوة. وفى النظرية الدستورية، لا تتصرف الملكة سوى بناء على نصيحة وزرائها. فهل يتيح لها قسم التتويج الذى أقسمته أن ترفض تعيين شخص ما ينتمى إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية فى منصب رئيس الوزراء؟ إنها ليست مخولة بذلك. وإذا ما أوصى هو بشخص ما ليكون رئيس الأساقفة الجديد فى كانتربورى وهى تظن أن لا يعتد به فى مسائل العقيدة، فهل يمكنها أن ترفض، بسبب القسم الذى أقسمته، التعيين على هذا الأساس؟ لم يكن هذا بوسعها. ففى سنة ١٨٢٩م كان الملك چورج الرابع مجبراً بواسطة وزرائه على أن يوافق، ضد إرادته وضد تفسيره الخاص للقسم الذى

أداه فى حفل التتويج، على التحرير الكاثوليكى (وهو ما كان ضد رغبات أساقفة كنيسة انجلترا مباشرة). وسرعان ما صارت هذه السابقة جزءاً من القانون الدستورى الإنجليزى. وبطبيعة الحال فإن الحاكم قد يكون لديه الوعى، ولكن لم يكن له الحق فى رفض الموافقة على تشريع يتعارض مع وعيه. وإذا ما كان يشعر بهذا بقوة كافية فإن الطريقة الوحيدة أمامه ستكون هى التنازل عن العرش.

ومما تسبب فى ارتباك الزائر القادم من المريخ، فإن الأمور فى حفل التتويج ليست فى الواقع كما تبدو؛ إذ إن العناصر الباقية المعادية للكاثوليكية فى طقوس الاحتفال لابد وأنها كانت تعتبر أكثر من مجرد عناصر رمزية فى عيون أولئك الذين شاركوا فى الاحتفال. ومع هذا، فمن الواضح أن الحدث كان حدثًا دستوريًا أساسيًا فى حياة الأمة. بيد أن العالم الذى جرت فيه مراسم التتويج هو عالم من المجاز والوهم. وهذا أيضا ليس مصادفة. فالإنجليز «يتخيلون مجتمعهم» (إذا ما استخدمنا تعبير بندكت أندرسون المفيد) بفعل من أفعال الذاكرة. وهم يميلون إلى الإجابة عن السؤال «من نكون نحن؟» بأن يسألوا بدورهم «من كنا نحن؟» وحفل التتويج هو المثل الأعلى على عملية الفعل هذه. وبقدر ما هى إجابة غير مرضية - وسوف نستكشف مدى قصورها فيما بعد - فإن ذلك راجع لأن الإنجليز يحاولون سحب الماء من بئر جاف.

وحفل التتويج عالم تبدأ فيه الأمور الكبيرة بجسارة ولكنها، مثلما يحدث فى الحلم، تعنى شيئا مختلفًا تمامًا. وإسرائيل مجرد سياق لا يعنى إسرائيل الكيان الحديث. إنها وسيلة لتمييز انجلترا باعتبارها استثنائية وفريدة تربطها علاقة خاصة ببنى إسرائيل الذين تحدث عنهم العهد القديم، وهى علاقة المصطلح الفنى الدال عليها هو «علاقة تصنيفية» (وسوف نناقش معناها مناقشة وافية فى الفصل التالى).
وهذا ما يجعلنا نتعقل الحقيقة الأخرى المحيرة، ومؤداها أنه طالما أن هناك عدواً مؤسسيًا لانجلترا، فإن حفل التتويج الذى هو فعل من أفعال تذكر التاريخ - وهو تذكر مقصود - يقول إن هذا العدو هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. كما أن السبب الكامن أيضا سبب تصنيفى. ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية، على مدى وجودها، قد زعمت أنها هى نفسها إسرائيل الجديدة. فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية هى

إسرائيل الجديدة، فمن الواضح إذن أن إنجلترا ليست كذلك. والوظيفة الأولية لهذه العناصر الرمزية المعادية للكاثوليكية في الدستور الإنجليزي هي الحفاظ على وضعية إنجلترا الفريدة، باعتبارها الشعب المختار الذي اختاره الرب خلفًا للشعب المختار الذي تحدث عنه العهد القديم. وقد طرحت مزاعم كل من الكنيسة الكاثوليكية والمزاعم اليهودية في هذا الشأن جانبًا. وفي كل من الحالين، فإن الدستور الإنجليزي هو ما يسمى «ذو المجالس الخارقة Supersessionist». بيد أن هذه ليست عنصرية أو تعصبًا دينيًا؛ إذ إن الاعتقاد بأنه لا اليهودية ولا الكاثوليكية الرومانية ديانتين حقيقيتين، هو اعتقاد قد يتبناه أي شخص عاقل تمامًا ومتحضر. وعلى أية حال، فإن النظر إلى هاتين الديانتين باحتقار قد يؤدي إلى العنصرية أو التعصب.

وفوق هذا كله، فإن تصنيف العهد القديم هذا ينطبق على ذلك الجزء من مراسم التتويج الذي يسمى «المسح». وهنا كانت الرابطة بين لندن ١٩٥٣م والقدس قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة أكثر وضوحًا وأكثر تفصيلاً - وأكثر كشفًا. فالمسح بالزيت المقدس هو العلامة القديمة التي لا يمكن أن تخطئها العين على الكهانة والملكية. وقد كانت تستخدم بهذه الطريقة في مصر القديمة، ولدى القبائل العبرية التي أقامت بها قبل ذلك الحدث المعروف باسم الخروج وأخذت هذا الطقس الرمزي الفرعوني لنفسها. والملك سليمان الذي حكم بني إسرائيل بعد قرون قليلة من سنوات الخروج، كان حتمًا من بين أولئك الملوك القدامى الذين مسحوا بالزيت دليلاً على حكمهم الملكي.

كانت كلمات حفل التتويج سنة ١٩٥٣م واضحة صريحة في هذه النقطة. فبينما وضع الدكتور فيشر قطرة من الزيت على بشرة الملكة، كان يتلو، أولا: «اتركي يديك تمسحان بالزيت المقدس»، ثم «دعي صدرك يمسح بالزيت المقدس»، وأخيرا «اتركي رأسك تمسح بالزيت المقدس» مثلما يمسح الملوك والكهنة والأنبياء، ثم غير طبقة صوته قائلاً و«كما مسح سليمان ملكا على يد صادوق الكاهن وناثان النبي، كذلك تمسحين وتكرسين وتباركين ملكة على الشعب، الذين أعطاهم الرب إلهك لهم لكي تحكميهم. . .»

وهذه الكلمات تجد لها صدى في ترنيمة صادوق الكاهن المأخوذة عن النسخة

المعتمدة سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩ـ٤٠ ، ومن ثم وضع موسيقاها جورج فريدريك هاندل، وكانت هذه الترنيمة تنشد أثناء تتويج إليزابيث الثانية، كما كانت قد أنشدت فى حفل تتويج أبيها «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبى وبناياهو بن يهوياداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا به إلى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان. وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون بالناى ويفرحون فرحًا عظيمًا حتى انشقت الأرض من أصواتهم».

وتجادل ليندا كولى فى كتابها "Britons :Forging the Nation" بأنه فى القرن الثامن عشر كان استخدام الموسيقى أكثر الوسائل فعالية لترويج فكرة أن بريطانيا هى إسرائيل الجديدة:

«منذ اللحظة التى استقر فيها جورج فريدريك هاندل فى لندن، أخذ يتملق المحيطين به، ولاسيما من يحمونه فى البلاط، بأن يضع فى موسيقاه مقارنات منتظمة بين حوادث التاريخ البريطانى وما كابده أنبياء وأبطال العهد القديم. والترنيمة التى ألفها لحفل تتويج جورج الثانى سنة ١٧٢٧م، والتى كانت تعزف فى كل حفل تتويج لاحق، هى مثال نموذجى فى الموضوع. . . . ولكن مؤلفاته هى التى استغل فيها المشابهة بين انجلترا وإسرائيل إلى آخر مدى. إذ إن مؤلفاته الموسيقية إستر، وديبورا، وأثاليا، ويوداس مكابيوس (التى ألفها على شرف الدوق كامبر لاند بمناسبة انتصاره على اليعقوبيين فى كوللودن) ويوشع، وسوزانا، ويافيثا، وبنى إسرائيل فى مصر، وهى مقطوعة موسيقية تقوم دليلاً على نفسها ـ كلها مؤلفات تتناول فى موضوعها الرئيسى تخليص بنى إسرائيل من المخاطر على أيدى زعماء يلهمهم الرب. وكان ما يريد هاندل من مستمعيه أن يخرجوا بعبرة وعظة واضحة: فى بريطانيا العظمى، التى هى إسرائيل ثانية وأفضل، ثمة ماض عنيف مضطرب يجب علاجه على أيدى السلالة الهانوفرية البروتستانتية الجديدة القوية، مما يجلب عصراً من الرخاء والوفرة التى لاتبارى».

وعبارة ليحفظ الله الملك تستخدم فى مكان آخر فى العهد القديم لإعلان تتويج

ملوك بنى إسرائيل كما جاء فى سفر صموئيل الأول، الإصحاح العاشر: «فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الرب إنه ليس مثله فى جميع الشعب. فهتف كل الشعب وقالوا ليحيى الملك». وعندما كان النشيد الوطنى، الذى تغيرت عبارته منذ موت چورج السادس إلى حفظ الله الملكة، ينشد بأصوات الجمع - وكل الأمة فى الحقيقة - فى نهاية حفل التتويج، اتجهت الملكة إلى الباب الغربى الكبير فى الدير وهى تضع تاج انجلترا وتحمل شعارات الملك القديمة. (وهى رموز منتظمة فى العهد القديم). **كذلك فإن تاريخ النشيد الوطنى يعود إلى عصر الأسرة الهانوڤرية عندما، وحسبما توضح ليندا كوللى، تم إبراز الرابطة بين ملوك وملكات انجلترا وملوك بنى إسرائيل لأسباب إيديولوچية.**

وتمامًا مثلما كان سليمان يحكم وفقا للأسلوب الذى تم إرساؤه فى الأسفار الخمسة الأولى التى تشكل التوارة العبرية، فإن الملكة إليزابيث تسلمت نسخة من الكتاب المقدس المسيحى، الذى يبدأ بنفس هذه الأسفار الخمسة، أسفار موسى **«لكى تبقى جلالتك على الدوام وفى ذهنك قانون الرب وإنجيله، بمثابة القاعدة التى تسير عليها حياة الأمراء المسيحيين وحكوماتهم»**. وقال لها كبير الأساقفة نحن نهديك هذا الكتاب، أقيم شىء يستطيع هذا العالم توفيره، ثم يغير وسيط المجلس لكنيسة اسكتلندا، الذى كان يسهم مع كبير الأساقفة فى المراسيم نغمة الصوت بقوله: **«هنا الحكمة؛ هذا هو القانون الملكى؛ هنا تجليات الرب الحية»**.

إلا أنه مرة أخرى لا تتوافق الكلمات مع الحقيقة تمامًا. إذ لم يكن أحد يتوقع من الملكة أن تصر على أن يراعى رعاياها كل تفاصيل قوانين موسى. ذلك أن ما تم التأكيد عليه هنا كان جانبًا من جوانب الهوية الوطنية، وليس مصدراً للتشريع يستخدمه البرلمان. والجانب محل التساؤل لم يكن مجرد أن الأمة الإنجليزية أمة مسيحية، إذ إن هذه قد تكون نقطة تبسيط مخل. إذ إن ما كان يتم التأكيد عليه مرة أخرى، هو أنه بالطريقة التى تربط بها انجلترا نفسها مع الرب، يمكن مقارنتها بإسرائيل القديمة، كما يمكن مقارنة الإنجليز ببنى إسرائيل.

والحقيقة أن كل الدول الوطنية فى العالم الحديث، مع الاستثناء الصارخ لبريطانيا، تحدد الأغراض الأساسية المشتركة والواجبات المتبادلة بين الحكام

والمحكومين بواسطة دستور مكتوب. وأكبر وثيقة في الدستور الأمريكي هي إعلان الاستقلال، الذي أقره الكونجرس في الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ م، والذي يعلن الحقوق الشهيرة:

«نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها براهين بذاتها، فإن الناس جميعًا قد خلقوا متساوين، وأن خالقهم أسبغ عليهم حقوقًا معينة لا يمكن انتهاكها، وأن من بين هذه الحقوق، الحياة والحرية والعيش في سعادة؛ وأن لضمان هذه الحقوق قامت الحكومات بينهم؛ لتستمد سلطتها العادلة من موافقة المحكومين؛ وأنه حينما تصبح أية حكومة مدمرة لهذه الغايات، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة...»

وهناك دول أخرى لديها إعلانات أخرى للمبادئ الأساسية في دساتيرها المكتوبة، على الرغم من أنه لا يوجد دستور بهذه الروعة. وبريطانيا العظمى التي أشرفت على استقلال عدد من الأمم شديد التنوع، لم تكن كلها مضطرة إلى الصراع من أجل الاستقلال بهذه الصورة المؤلمة، رأت أن كل هذه الأمم كانت مجهزة بدستور مكتوب قبل أن تنفصل عن الدولة المستعمرة. ولكن بريطانيا العظمى نفسها ليس لديها دستور مكتوب، وليس لديها إعلان مدوى للحقائق التي هي براهين ذاتها، وبدلا من ذلك لديها حفل التتويج. ففي هذه المراسم يقدم الدستور البريطاني قوله الواضح الوحيد عن واجبات الحاكم المتوج، على الرغم من أن هذه الواجبات ينفذها وزراء منتخبون.

وبينما كان سيف الدولة تتم مباركته، استعدادًا لتمريره إلى الملكة بأيدي كبير الأساقفة وغيره من كبار الموظفين، كان يترنم:

«اسمع صلواتنا يارب فنحن نبجلك، وكذلك وجه وساند خادمتك الملكة إليزابيث لكي لا تحمل السيف عبثًا؛ ولكن لتستخدمه وزيرة للرب لإرهاب وعقاب من يرتكبون الشر، والحماية وتشجيع أولئك الذين يفعلون الخير من خلال سيدنا يسوع المسيح. آمين».

وبينما يمرر السيف إليها، وبينما هي تمسكه، يستمر في ترنيمته:

«تقبلى هذا السيف الملكى المجلوب الآن من مذبح الرب، وقد سلم إليك بأيدينا نحن الأساقفة وخدام الرب، على الرغم من عدم جدارتنا بهذا السيف. افعلى العدل، أوقفى نمو عدم المساواة، احمى كنيسة الرب المقدسة، ساعدى الأرامل واليتامى ودافعى عنهم، أعيدى الأشياء التى تلاشت وحافظى على الأشياء التى أعيدت، عاقبى وأصلحى ما هو فى فوضى، وثبتى ما هو فى حال ونظام سليم:

لأن فعل هذه الأشياء قد يجعلك مجيدة بكل الفضائل؛ وكذلك اخدمى بإخلاص سيدنا يسوع المسيح فى هذه الحياة حتى يمكن أن تحكمى إلى الأبد معه فى الحياة الآتية. آمين».

إن الملك يجسد التاج؛ والتاج يمثل كل السجايا الأخلاقية المرئية وغير المرئية التى يرغب الإنجليز فى أن تسبغ عليهم. أما ماهية هذه السجايا فقد أرسيت فى احتفال دولة وقور، وذلك الحدث الذى وقع يوم ٢ يونيو سنة ١٩٥٣م هو الذى افتتح عهد الملكة إليزابيث الثانية، وهو الذى تعثر فيه زائرنا المريخى المحتار.

ماذا كانت تلك السجايا الأخلاقية بخلاف التحديد الوارد فيما سبق؟ لا يمكن الإجابة بسهولة على الأسئلة بمجرد الإشارة إلى الكتاب المقدس. إذ إن الإجابة قد وضعت بعناية ضمن مراسم عملية التتويج نفسها. وربما كان معظم الناس فى بريطانيا الخمسينيات راضين بالقول بأن القيم الجوهرية لمجتمعهم كانت مسيحية. والعبارة الأكثر شمولاً وهى «يهودية - مسيحية» لم تكن قد شاعت بعد. ولكن لابد أنهم كانوا يعنون المسيحية كما كانت مفهومة بالاتفاق السائد آنذاك فى الكنيسة الأنجليكانية. ومن المحتمل أن الزعماء الأنجليكان فى تلك الفترة كانوا يصرون على أنه لايوجد فرق حقيقى بين مبادئ كنيستهم الأخلاقية وتعاليم الكتاب المقدس، ولكنهم بالطبع كانوا مخطئين. لأن الزعماء الإنجليكان بعد خمسين سنة، أو قبل خمسين سنة بالنسبة لهذا الأمر، كانوا هم أول من أصرّ على ذلك. إنها إحدى مزايا الدستور غير المكتوب أن الأمور التى تأخذها أمة على أنها من البديهيات، يمكن أن تتغير مع مرور الزمن وتغير الظروف. وتتويج سنة ١٩٥٣م الذى كاد أن يتطابق مع تتويج إدوارد السابع سنة ١٩٠٢، قال شيئًا مختلفًا للغاية عن الأمة وقيمها.

إذ كان الأساس الأخلاقى الأنجليكانى الموجود سنة ١٩٥٣م. وبوسع المرء أن

يسميه الأساس الأخلاقي الوطني - ذا أصل حديث نسبيًا. إذ إن وليم تمبل سلف الدكتور فيشر كبير أساقفة كانتربورى، وبعد فترة طويلة أمضاها ككبير أساقفة يورك، كان مسئولاً إلى حد كبير عن إنتاج نظرية عن مسئولية الدولة تجاه مواطنيها وكانت نظرية أكثر نشاطًا وتدخلاً - وأشد يسارية - مما كان أسلافه يحبذونه. إذ عاش هو وجيله خلال الحرب العالمية الأولى وفترة الكساد الكبير. وقرر أن كنيسة إنجلترا لا تستطيع أن تتنحى جانبًا بعيدًا عن معاناة الناس العاديين في إنجلترا. وبصفة خاصة، أسهم في الأفكار التي صارت مترجمة في دولة الرعاية (الرفاهية) التي قامت فترة ما بعد الحرب، وكان ذلك مصطلحًا من اختراعه. وقد عقد في زمن الحرب مؤتمرًا شهيرًا باسم «مؤتمر ما لفرن» - في ما لفرن بورسسترشاير سنة ١٩٤١م - وفيه دعي أناس من ذوي المكانة والقدر ليناقشوا سويًا - وبصفة خاصة - كيف يبنون عالمًا أفضل بعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية. وكانت إحدى النتائج متمثلة في كتابه الذي صدر سنة ١٩٤٢م «Christianty and Social Order» (الذي باع ١٤٠ ألف نسخة وكتابه «The Church looks Farward» الذي صدر سنة ١٩٤٤م.

وعلى الرغم من كونه ابنًا لرئيس أساقفة سابق في كانتربورى، ومن كونه هو شخصيًا ناظر مدرسة عامة سابقًا، فإن تمبل كان ينتمي إلى حزب العمال (١٨ - ١٩٢٥)، وكان رئيسًا لرابطة العمال التعليمية. ويدين مجلس الكنائس البريطاني ومجلس الكنائس العالمي بتشكيلهما إلى حد كبير لمبادراته ونفوذه الذي جعل الكنيسة تؤيد مرسوم التعليم سنة ١٩٤٤م، الذي طرح مبدأ التعليم الحر لكل إنسان، والذي تموله الدولة. وقد وصف وضع تمبل اللاهوتي بأنه نوع من المثالية الهيجلية التي تحبذ الروابط الحميمة بين الكنيسة والدولة، والتي تشجع رجال الكنيسة الذين يتحدثون عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الزمان. وكانت علاجاته للأمراض الاجتماعية تتراوح صعودًا وهبوطًا مع النزعة الأبوية للدولة. وكان اعتراضه على الرأسمالية مستمدًا من رومانسية ما قبل عصر التصنيع - إذ كان يساوي بين المنافسة التجارية والأنانية - أكثر من كونه مستمدًا من الاشتراكية. ولأنه كان رجلاً إنجليزيًا رقيق الحاشية راقيًا، وهو أفضل تجسيد لمذهب الهاوي حسن النية، كان وعيه قليلاً بالاقتصاديات أو أي فهم للصناعة. ولكن إنجازه كان

متمثلاً فى جعل نوع بريطانيا التى كانت آخذة فى الظهور سنة ١٩٥٣م (بعد ثمانية أعوام من موته) تبدو مثل نموذج لمجتمع مسيحى مثالى. وفى كتابه عن تاريخ الاشتراكية المسيحية فى بريطانيا يكتب آلان ويلكينسون: «من الحيوى أن ندرك أن تمبل لم يكن نبيًا اشتراكيًا معزولاً ولكنه كان واحدًا فكر ودبر، وفعل الكثير لتقوية الوفاق الاجتماعى. لقد كان تمبل داخليًا بأكثر مما يجب، كما أنه إلى حد كبير كان نتاجًا لمؤسسات قوية فى الكنيسة وفى الدولة، ولم يكن أبدا ليصير نبيًا ثوريًا ضدهما».

وكان جزء من تراث تمبل يتمثل فى الإيمان بأن النبوءة الاجتماعية الثورية لم تعد ضرورية، فقد صارت غير ذات قيمة بوجود الدولة - الراعية. إذ إن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة فى فترة ما بعد الحرب والتى قامت بها حكومة حزب العمال سنة ١٩٤٥، تبناها إلى حد كبير حزب المحافظين الذى عاد إلى السلطة سنة ١٩٥١م، حتى تلك الإصلاحات التى عارضها بمرارة عندما عرضت على البرلمان. وقد وصف هارولد ماكميلان رئيس الوزراء فى أواخر خمسينيات القرن العشرين هذا الوفاق (الذى كان ينتمى إليه) بأنه «اشتراكية أبوية». وكان تقرير بفريدج الصادر سنة ١٩٤٢م قد وعد بمجتمع فيما بعد الحرب تكون فيه كلمة: يحتاج - بالمصطلحات الحديثة الفقر بكل أشكاله - قد تلاشت بفضل أعمال الحكومة. وتحت مشروعه لابد من أن تشمل الناس من كل الطبقات مظلة تأمين إجبارية ضد كل أنواع المصائب. وعلى الرغم من أن المشروع كان تقدميًا بالنسبة لعصره، فإن عينة من فراسته فى الاتجاهات الاشتراكية يمكن استجلاؤها من هذا المستخرج: «فى السنوات الثلاثين القادمة، سيكون على ربات البيوت بوصفهن أمهات أداء عمل حيوى لضمان استمرار الجنس البريطانى والمثل البريطانية فى العالم». هذا الطموح كان مقبولاً بنفس الدرجة بعد عشر سنوات أيضًا. وإذا كان وليم بفريدج قد قدم بروفة الدولة الراعية فى فترة ما بعد الحرب، فلا شك فى أن وليم تمبل - وهو صديق بفريدج من أيام جامعة أوكسفورد - هو الذى قدم المباركة اللاهوتية للأخذ بها. وربما يقال إن فيشر كان أقل حماسة بصورة أو بأخرى. بيد أنه لم يقوّض ما أحرزه تمبل.

كان تمبل واحدًا من الآباء لما يسمى وفاق ما بعد الحرب فى بريطانيا، وهو وفاق

لم يواجه أى تحد مهم، وكما قال براونتج، كان الرب فى سماواته وكل شىء كان على ما يرام فى الأرض. لقد كانت خمسينيات القرن العشرين بحق هى أعلى ما وصلت إليه انجلترا الأنجيلكانية.

ويصف كوريللى بارنت فى مسلسله ذى الأجزاء الأربعة «Pride and Fall» هذا المشهد لعالم جديد يبنى فى بريطانيا ما بعد الحرب، بينما أستأنفت بريطانيا نفسها مكانتها كقوة عظمى، تحت اللافتة التى تدعو للسخرية «القدس الجديدة» لقد كان ذلك اسمًا اعتادت كنيسة انجلترا عليه (بدون التهكم)، وكذلك حزب العمال ومهندسو دولة الرفاهية الذين خططوا لها زمن الحرب. والواقع أن هذه كانت هى الكيفية التى رأوا بها ما كانوا يفعلونه. فقد ظنوا أنه من الممكن، حقًا، قيام هذه الدولة، وأنها كانت مهمتهم. وإذ خاضوا حربًا جيدة ضد هتلر، كانوا على أعتاب الأرض الموعودة. ويقول بارنت من ناحية أخرى، أن حكم التاريخ إنها كانت إضاعة فرصة فريدة لإعادة بناء اقتصاد وطنى. وهو يكتب:

«كان. . . . الشعب البريطانى بأسره هو الذى شارك فى حمل المسئولية مع السياسيين لكل الأعباء والضغوط الزائدة الهائلة التى تنشأ عن هذه الفنتازيا التى فرضت على بريطانيا فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية والعبث النهائى فى خداع النفس النهائى فى مغامرة حرب السويس. ومع ذلك فإنهم هم الذين شاركوا بنفس القدر فى تحمل مسئولية السبب الثانى فى العبء الاقتصادى فيما بعد الحرب، أى «القدس الجديدة». إذ إنهم طلبوا، ووعدهم السياسيون، أنه سوف يتم دونما تأخير تحقيق البرنامج الذى وضع زمن الحرب لرفاهية الدولة من المهد إلى اللحد، رعاية صحية مجانية، توظيف كامل، ومنزل مثالى لكل أسرة».

وعلى الرغم من أن تمبل كان كبير أساقفة كانتربورى لفترة قصيرة، ولكنها ذات أثر باق، فإنه حكم تيار الفكر الأنجليكانى الرئيسى منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. فقد كان رئيسًا للجنة العقيدة التى كانت تجتمع فى سنوات ما بين الحرب، ثم تخلت تدريجيًا عن محاولة صياغة لاهوت أنجليكانى متمايز. وقد أسس تقريرها الذى نشر سنة ١٩٣٨م، مقاربة إذا لم تكن هى ما يؤمن به الأنجليكان، فقد كانت عن كيفية تصديقهم إياها على الأقل. إذ رفض تمبل فكرة المذهب الدقيق

والأكيد، وهى مقاربة قدر لها أن تكون قياسية فى كنيسة انجلترا بعده. فقد كان يفضل أن يضم إليه كل أولئك الذين يريدون أن يطلق عليهم اسم مسيحيين، بدلاً من أن يمتحنهم بالتعريفات اللاهوتية التى لا تجلب سوى استبعاد المتردد. ويقول چيمس كنت عنه:

«انطلق تمبل لكى يعطى رؤية متماسكة منطقيًا للعلاقة بين المسيحية والفلسفة، وقد فعل هذا بأن أخذ فكرة الغاية كفكرة مركزية لفهمنا للكون. وقد كانت حجته أن غاية عالمية لا يمكن أن توجد دون الوجود النشط لإرادة حقيقية، تكمن وراء العالم. والفعل القصدى يجب (أو هكذا بدا الأمر لتمبل) أن يكون شخصيًا، وهذا بدوره يشى بأن «الغاية الخلاقة» وراء العالم يجب أيضا أن تكون مرتبطة بالإله شخصيًا. وبهذه الطريقة بنى تمبل فكرة الإرادة الإلهية الحاكمة، أو الإله الشخصى».

ويحتاج المرء إلى أن يكون حذراً من مصطلح «الرب الشخصى»، لأنه مصطلح مربك تمامًا، وبفضل التسويق الحديث، مع المفهوم المختلف تمامًا عن الرب الذى يصنعه المرء لنفسه، أو الرب الذى تم تصميمه لكى يناسب حاجات المرء «الشخصية» الخاصة أو ميوله الخاصة (مثلما يحدث فى أى بنك نمطى للمدخرات عندما يقوم بتطوير قرض شخصى يناسب ظروفك الخاصة). وثمة سؤال منتظم يطرحه الباحثون فى الاعتقاد الدينى هو «هل تؤمن بإله شخصى؟ (وقد سجل أحد الباحثين إجابة عنه تقول: «لا إننى أؤمن بالإله العادى فقط»). ولكن ما يسبب حيرة مثل هؤلاء الباحثين ممن يستطلعون الرأى العام، هو أن عدد الذين يقولون نعم أقل كثيرا من عدد الذين يزعمون أنهم يؤدون الصلاة بانتظام.

وعلى أية حال فإن معنى «الإله الشخصى» فى اللاهوت الذى وضعه تمبل (وفى السؤال الذى وضعه الباحثون فى الاستبيان) لا يختلف فى الواقع عن «هل تؤمن بإله يمكن أن يستمع إلى صلواتك؟ فالإله الشخصى فى هذا السياق يعنى إلها يمكن للمرء أن يتواصل معه وأن يرتبط به. وتمبل يستخدم كلمة «شخصى» بهذا المعنى، وليس بمعنى «مصمم حسب مواصفاتك الخاصة». وبعبارة أخرى، فإن الإجابة غير المتوقعة «لا إننى أومن بالإله العادى فقط» كانت هى الإجابة

الصحيحة. إذ إن أولئك الذين قالوا لا للإله الشخصى كانوا يحاولون أن يكونوا صحيحى العقيدة، ويميزون أنفسهم عن مفهوم العصر الحديث أو ما بعد الحداثة الذى يقول: «لك ربك ولى ربى». ومن المثير للسخرية أن رفض تمبل للمعايير العقيدية أساسًا لعضوية كنيسة انجلترا ربما يكون حقا هو الذى أرسى أساس المقاربة بعد الحداثة «ربك/ ربى» «للديانة الشخصية» بالمعنى التسويقى الحديث.

إذًا كانت رغبة تمبل فى تحديد عضوية الكنيسة القائمة لتضم الجميع قدر الإمكان تعبيراً عن نزعته المتفائلة. وكان من حسن التوافق أن حالة البلاد فى وقت التتويج سنة ١٩٥٣م كانت جيدة. وكان اسم الملكة الجديدة إليزابيث تذكرة مباشرة بملكة سابقة تحمل هذا الاسم، هى الملكة الطيبة «بس» التى تحفظها الذاكرة الشعبية. وكانت الحرب قد انتهت منذ ثمانى سنوات. وكانت الأمة لديها إحساس قوى بأنها قاتلت بشكل جيد، من أجل قضية صحيحة. وكانت السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة سنوات صعبة، ولكن بحلول سنة ١٩٥٣ كانت الأحوال آخذة فى التحسن، كما كان نظام الحصص قد انتهى إلى حد كبير، وعادت البضائع إلى المحلات، والدمار الذى أحدثته القنابل كان يختفى من المناطق الحضرية. وكانت دولة الرعاية قد بدأت تجعل الأمر يبدو كما لو أن الظروف القاسية التى سادت ثلاثينيات القرن العشرين لن تعود أبداً. وقد وضعت الصناعات الرئيسية فى الملكية العامة، وعند هذه النقطة كان ما يزال هناك تصور بأن ذلك سوف ينهى بسرعة نضال اتحاد التجارة. وخدمة الصحة الوطنية ـ التى كانت تقدم علاجًا طبيًا مجانيا للجميع ـ كانت رمزاً أوليًا لبريطانيا الجديدة المتحدة المهتمة. وبدا كأن رابطة جديدة تجمع بين الحكام والمحكومين قد تشكلت فى سنوات ما بعد الحرب، وقد تورطت الدولة كثيراً فى التفاصيل اليومية لحياة الناس. وكانت دولة مسيحية وحانية، دولة جعلت شاغلها أن تلعب دور السامرى الطيب مع أى مواطن محتاج.

وكانت بشرى النجاح الوطنى شائعة فى الصحافة فى ذلك الصيف الذى تم فيه التتويج، البعثة البريطانية التى تسلقت قمة جبل إيفرست للمرة الأولى. (وفى الحقيقة أن متسلقى الجبال الذين وصلوا إلى القمة كانوا نيوزلنديين، ومرشد من نيبال، بيد أن هذا لم يكن يبدو مهمًا). كما أن التتويج نفسه كان يفيض بالأبهة

والرومانسية؛ إذ كانت الملكة الجديدة شابة وجميلة، كما أن زوجها كان وسيمًا بشكل مذهل (وكان بطلاً من أبطال الحرب)، وكان الاثنان أبوين محبين لعائلة ناشئة. ولم تكن كنيسة انجلترا بحاجة إلى التشجيع لكي ترسمهما فى صورة العائلة المسيحية المثالية، نموذجًا يجب على البلاد بأسرها أن تعجب به وتتطلع إلى تقليده (إذا لم يكن فى أسلوب الحياة، ففى الفضائل المنزلية على الأقل). هذه الصورة لعائلة سعيدة على نحو لا يكاد يصدق فى قصر باكنجهام، صارت شيئا مثل الرسالة الجوهرية التى حملها حفل التتويج نفسه. انظر كيف تفعل المسيحية الأنجيلكانية المعتدلة المعقولة حينما تتاح لها الفرصة، حسبما قيل آنذاك. وقد تكررت الرسالة فى ألف خطبة وموعظة كنسية.

وغنى عن القول، إن ما كان يجرى حقًا فى البيت الملكى كان خافيًا عن رؤية العامة، وكان السبب فى ذلك راجعًا إلى حد كبير لأن الصحافة كانت تقبل دون مناقشة عادة التبجيل والاحترام للشأن الملكى. وكان ما حصل عليه العامة أسطوريا أكثر منه حقيقة ـ ولكن لا شك فى أنهم كانوا يفضلون الأمور على هذا النحو. وكان أحد أغراض التتويج هو إضفاء قدر من الغموض الصوفى على الشخوص الملكية بحيث ينحيهم جانبًا عن البشر العاديين. وعلى الرغم من أن هذه الصوفية ليست مسيحية بالضرورة ـ نفس هذا الغموض كان يحيط بالإمبراطور اليابانى وعائلته الملكية ـ فإن أريج هذا الشعور بالخصوصية والتميز كان دينيًا بالقصد؛ إذ إن التبجيل الصوفى والتبعية الدينية التى قال عنهما والتر بيجهوت إنهما كانا «أساسا للملكية الحقيقية»، كانا فى حالة سليمة تمامًا.

وملاك هذه الخاصية الصوفية للملكية، فوق ذوات كل الأشخاص الملكيين الذين يرتدون التاج، فهم لذلك كانوا مختلفين وأكبر من الحياة، وأكثر أمانة وذكاءً وجمالاً، وأكثر امتيازاً وهم فوق كل نقد. وكانت كل إمكانيات الكنيسة والدولة تستخدم للإبقاء على الصورة هكذا. وكان هذا أيضا جزءًا من الأخلاقيات الأنجليكانية عند بداية خمسينيات القرن العشرين: وكان هذا أيضا متضمنًا فى الرسالة التى كان المقصود أن يحملها التتويج. فقد كان يضيف مزيدًا من الحلاوة على الإحساس الإنجليزى بأنهم أمة خاصة باركها الرب بشكل فريد.

كانت الاستمرارية أيضًا جزءًا من الرسالة. وقيل إن تلك كانت أمة قديمة وترجع كثير من تقاليدها إلى ألف سنة أو أكثر. وعادة وضع تاج على رأس الملك، أو الملكة، باعتباره أعلى علامة على السيادة، يمكن إرجاعه إلى الأباطرة الأوائل بعدما جعل قسطنطين الإمبراطورية مسيحية بصورة رسمية سنة ٣١٣م. ويذكر هربرت ثورستون في دائرة المعارف الكاثوليكية «Catholic Encyclopaedia»، أن ڤالنتيان (٣٦٤)، وابنه جراتيان (٣٦٧م) قد توجا عندما توليا الحكم الإمبراطوري:

قام البطريرك أناتوليوس سنة ٤٥٠م بتتويج مارشيان وبذلك الفعل وضع أصل احتفال صارت له أهمية من أعظم ما يمكن في المفهوم اللاحق للملكية. وفي البداية يبدو أنه لم تكن هناك فكرة عن إضفاء أية خاصية دينية على هذا التتويج: وربما كان اختيار البطريرك ببساطة راجعًا إلى الرغبة في التخلص من الغيرة وتجنب إعطاء الذرائع لأصحاب المزاعم الأقوى في نيل هذا الشرف. ولكن في سنة ٤٧٣م بالفعل، عندما تم تتويج ليو الثاني في حياة جده، نجد البطريرك أكاسيوس لا يمثل بشخصه فقط في الاحتفال، وإنما يتلو صلاة قبل مراسم التتويج. ولو كان جد ليو وليس أكاسيوس هو الذي فرض ذلك فعلاً، لكان على أساس فقط من القاعدة المرعية، بأن الإمبراطور الحاكم في حياته هو المصدر الوحيد للشرف حينما يختار أن يسبغ أي جزء من سلطته لزميل أو شريك. وإذا تم اتباع التدخل الأول من البطريرك بدقة، صار العنصر الكنسي في احتفال التتويج يتطور بسرعة. وعند انتخاب أناستاسيوس (٤٩١م) كان البطريرك حاضرا في اجتماع مجلس الشيوخ والأعيان عندما قاموا باختيارهم الرسمي، والإنجيل في وسطهم... ولا يجري التتويج في مبنى مقدس، ولكن الإمبراطور يقسم قسمًا بأن يحكم بالعدل، وثمة قسم آخر مكتوب يؤخذ منه بواسطة البطريرك بأن يحافظ على الدين كله، وبألا يحدث أية بدعة في الكنيسة... ثم بعد أن يكون الإمبراطور قد منح جزءًا من الفخامة الملكية، قام البطريرك بالصلاة، ثم أنشد كيرياليسون(*)، ثم وضع على سيده العباءة الإمبراطورية والتاج المرصع بالجواهر. ومظاهر التهليل أيضًا التي تصاحب خطبة الإمبراطور التي تحمل الوعود المعتادة عن العظمة، وتعقبها هتافات دينية الطابع؛ مثل «ليحفظ الرب الإمبراطور المسيحي».

(*) تعني في الصلوات المسيحية: يارب ارحم.

وقد وجد ثورستون دليلاً على كل من التتويج والمسح بالزيت فى طقوس التتويج التى كانت مستخدمة قبل الغزو النورماني. وكان الشكل مستقراً بصورة أو بأخرى حسب الشكل الحديث، ناقصًا عناصر ما قبل الإصلاح الدينى التى يظن أنها كانت ذات أسلوب كاثوليكي روماني، فى تتويج إدوارد الثانى سنة ١٣٠٧م. وصار هذا الطقس يعرف باسم «Liber Regalis» [أى العمل الملكى]: «وقد يقال حتى فى الوقت الحالى إنه يشكل الأساس للطقوس التى يتم بها تتويج ملوك بريطانيا العظمى» حسبما يقرر ثورستون.

وعندما تولى دكتور فيشر بوصفه رئيس أساقفة كانتربورى رئاسة حفل تتويج الملكة إليزابيث سنة ١٩٥٣م، كانت السابقة التى أرست هذا الفعل قد جرت قبل حوالى ١٥٠٠ سنة. وعندما كان يضع التاج على رأسها، شعر أن الأمة كلها كانت تحبس أنفاسها، كما قال هو فى وقت لاحق. فقد كان التتويج فى تلك السنة أول احتفال عام كبير ينقل بالتليفزيون على اتساع بريطانيا العظمى، وكان واضحًا من الحالة النفسية الوطنية أن كل أولئك الذين كانوا يشاهدون شاشات التليفزيون كانوا جزءاً من الفعل شأنهم شأن أولئك الحاضرين فى دير وستمنستر. وقد نصحت الصحف قراءها بأن يقفوا تحية للنشيد الوطنى، حتى ولو كانوا فى بيوتهم.

والمكانة التى أسبغت على الملكة، مؤداها أن الفعل المقدس ختم على الروابط المقدسة بين الحاكم والمحكوم، ومن ثم قالت شيئًا غامضًا وشاملاً فى آن عن هوية الأمة نفسها. بيد أنه لم يكن عقداً بين الملكة والشعب. وإنما كان ميثاقًا بين الملكة والرب. وتم ختم الميثاق بفعل من جانب الدولة، وليس بأى فعل من جانب كنيسة الدولة لصالح الدولة. والأمة كلها، سواء من كانوا أعضاء فى كنيسة انجلترا أو أية جماعة دينية أخرى، أو ليسوا أتباعًا لأية كنيسة على الإطلاق، كانت داخلة فى الأمر. إذ كانت الأمة تتصرف مثل كنيستها، وكانت مخولة تمامًا أن تغير الاحتفال وتبدله إذا شاءت. وبمعنى ما، لم يكن يهم من الذى وضع التاج على الرأس الملكية. ولكن تبديل الاحتفال لم يكن هو مربط الفرس؛ لأنه كان يرمز إلى الكيفية التى كانت عليها الملكية القديمة، وكيف أنها مستمرة. وحقيقة أن المعنى الدقيق لمختلف التفاصيل فى الاحتفال قد ضاعت فى ضباب الزمان لم تكن نقيصة، حتى ولو جعلت تلك اللحظات غير مفهومة بالنسبة لأولئك الذين يشاهدون أو الذين

يشاركون في الاحتفال. إذ كان يكفي أن إدوارد الثاني قد فعل هذه التفاصيل المختلفة في سنة ١٣٠٧م. وقد تمرغ المعلقون بإيجابية في غموض مثل هذه الأشياء التي يتضمنها التتويج، . . ومنها خاتم الكرامة الملكية الذي توافق قبول الملكة له مع صلاة كبير الأساقفة: «بينما أنت في هذا اليوم يتم تكريسك رئيسة وأميرة علينا، فكذلك استمري بثبات مدافعة عن دين المسيح: إذ إنك إذا كنت غنية في العقيدة ومباركة في كل الأعمال الخيرة، فسوف تحكمين معه هو ملك الملوك، له المجد إلى الأبد ومنذ الأزل. آمين».

واللغة العتيقة تضفي المزيد من السرية والغموض من نوعية ذهبية. فقد خرجت الملكة المتوجة من دير وستمنستر من الأضواء لتبدو شخصية مشعة وذهبية. وعلى الرغم من أنه ربما لم يكن قد استخدمت هذه اللغة، فإن الأمة أحست أنها قد مرت بسر من الأسرار المقدسة - ليس واحداً من السرين اللذين تعترف بهما كنيستها، ولا حتى من الأسرار السبعة التي تعترف بها روما، ولكنه سر مقدس آخر، إنجليزي تم اختراعه، جعل من اللغة لغة مقدسة، ومن خلال اللغة كانت الأمة بأسرها قد اكتسبت شرعيتها. والتقاليد التي يقوم هذا على أساسها ترجع إلى ماقبل حركة الإصلاح الديني الإنجليزية، على نحو ما يتذكر شكسبير في مسرحية ريتشارد الثاني: «لا يمكن لكل مياه البحر الهادر أن تمحو الشرف عن ملك مسح بالزيت المقدس».

ويصف إرنست كانتوروفيتز في كتابه: The Kings two Bodies :

A study in Medieval Political Theology .

هذا بأنه نظرية أن للملكية ذاتين، ذات مقدسة وذات طبيعية (وهو صدى لوصف المسيح بأنه إله حقيقي وإنسان حقيقي) وهي في القدرة الأولى تمثل المسيح الذي تحوز السلطة السياسية باسمه.

وآخر مرة كان مثل هذا التقديس للملكية على ذلك القدر من الوضوح، كانت في عهد سميتها، إليزابيث تيودور. وقد زاد هذا من وهم أن عصراً إليزابيثيا ثانيا قد بدأ لتوه، وفيه ستعود بريطانيا (وانجلترا خاصة) إلى العظمة التي كانت مباركة خاصة من الرب لها.

ومع استمرار الملكية، استمرت الأرستقراطية والطبقية الاجتماعية. وفي كتاب

«England An Elegy» يصف روچر سكروتون كيف كان هذا التأثير الذى يسبب الاستقرار يعمل:

«كانت الملكية والطبقية الوراثية على السواء طريقتين من خلالهما كان للماضى والمستقبل صوت فى سياسات الحاضر؛ إذ إن طبقة الأشراف الوراثية، كما كانت مفهومة تقليديًا، تسبيت فى أن المنصب السياسى يرتبط بالمكانة الاجتماعية الراقية، كما يرتبط بلقب يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقطعة من انجلترا. . . ومن ثم فإن للمجلس الأعلى فى البرلمان (مجلس اللوردات)، تكون إلى حد كبير من أناس كانت مصالحهم ليست هى المصالح والاهتمامات قصيرة المدى للأحياء من البشر، ولكن المصالح بعيدة المدى للأقاليم. وأول مثل هذه المصالح يتمثل فى رغبة عميقة راسخة فى الاستمرارية الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن الامتياز الذى تجلبه الوراثة لا يمكن تأمينه سوى إذا كانت الترتيبات الاجتماعية والسياسية التى ترفره مستمرة فى الوجود. ومن المحتم، بالتالى، أن مجلسًا أعلى وراثيًا سوف يرى نفسه حاميًا أو وصيًا على الميراث الاجتماعى والسياسى، وإلى ذلك المدى سيكون كابحًا للعملية الديموقراطية».

وربما يكون مستحيلاً أن نتصور ملكية دونما أرستقراطية من نوع ما، ولكن الأرستقراطية البريطانية كانت فى طبقة خاصة بها. لقد كانت هى الهرم الصلب الذى تقف الملكية على قمته. كانت هى مصدر صحبة البلاط التى أحاطت الملكية نفسها بها. لقد كانت هى مصدر الدماء الجديدة عندما كان المرشحون للعرش بحاجة إلى زوجات أو أزواج. وبصورة جماعية كانت تشكل مجلس اللوردات الذى كان يعطيها القوة السياسية المباشرة، كما أن الأرستقراطية، مع كنيسة انجلترا، كانتا تقدمان الشخصيات الدرامية التى لعبت أدوارها فى ذلك الزمان.

وفضلاً عن ذلك فإن الأرستقراطية البريطانية مرتبطة تقليديًا بحزب المحافظين، الذين عاد زعيمهم الأرستقراطى ونستون تشرشل (المولود فى قصر بلنهاهيم) إلى مشهد انتصاراته زمن الحرب، فى ١٠ دوانتج ستريت، قبل ذلك بستين. وقال فى حديث أذيع بعد الانتخابات إنه كان يشعر أن هناك «إحساسًا متناميًا بالحاجة إلى إعادة بريطانيا إلى مكانها الصحيح، وهو إحساس تتحرق قلوب الناس إليه بعيدًا عن صفوف أى تنظيم سياسى».

وكانت خسارة الانتخابات سنة ١٩٤٥م أمام حزب إصلاحي، وليس حزبًا ثوريًا، هو حزب العمال، هو الذى دفع المحافظين إلى القيام بعملية مراجعة أساسية لسياساتهم، وساعدهم على تقديم أنفسهم سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥١م على منصة جديدة تمامًا، مصنوعة إلى حد كبير مما أخذوه عن حزب العمال. أما حزب الأحرار الأصغر، الذى يقف فى منتصف الطريق بين المحافظين والعمال، فقد رفض عرضا ببعض الكراسى فى الوزارة، بيد أن العرض بحد ذاته كان مقياسًا يدل على الوفاق. (وحتى هكذا، كسب المحافظون الأغلبية من مقاعد البرلمان دون أن يفوزوا بالأغلبية فى أصوات الناخبين) هذه المقاربة الوفاقية والوحدوية إلى الحكومة من جانب المحافظين أخذت تطلعاتها من تقرير دزرائيلى فى منتصف القرن التاسع عشر عن مذهب المحافظين «أمة واحدة» والذى تم تصحيحه على أساس سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وهو ينسجم تمامًا مع مذهب الأرستقراطية Noblese Oblige أى واجب نبلاء المولد فى أن يكونوا نبلاء وكرماء تجاه من هم أدنى منهم اجتماعيًا.

والأرستقراطية هى الحكومة الإقطاعية القديمة فى بريطانيا فى فراء جديد؛ أى أن حزب المحافظين هو القناة التى من خلالها احتفظت الأرستقراطية بيدها على آلة السحب الوطنية. ولذلك كان «الحزب الطبيعى للحكم»، الذى يقوده أبرز رجال الدولة فى العالم، تشرشل، مسئولاً عن مصائر الأمة عند بداية العصر الإليزابيثى الجديد (كما كانت الصحف تجاهر به). ولقى تشرشل نفسه أسمى تكريم ملكى، فقد تم تعيينه فى رتبة Knight of the Garter فى تلك السنة. وحقيقة أن الأغلبية الكبرى من النبلاء والأشراف كانوا من حزب المحافظين، كانت تعنى أن المجلس الأعلى فى البرلمان به أغلبية من المحافظين، ولكن فى سنة ١٩٥٣م، لم يبق منهم سوى قلة، وكان ذلك يبدو أنه النظام الطبيعى للأشياء.

وكانت مغازلة رئيس أساقفة كانتربورى لحزب العمال محل ملاحظة بالفعل. ولكنه كان قدر المحافظين خلال قرنين من الزمان أن يكون الحزب الطبيعى للعرش والكنيسة. وقد تماشت الأغلبية الكبرى من رجال الكنيسة الأنجليكان مع هذا. ومن ثم، فإنه بهذه الطريقة كانت إحدى رسائل التتويج سنة ١٩٥٣م بمثابة ثورة مضادة. وقيل إن الثورة الاشتراكية التى تنادى بالمساواة، وحتى النزعة الجمهورية التى يحض عليها أولئك الذين على يسار حزب العمال، لم تكن على الطريقة

الإنجليزية ؛ وكون أن حزب العمال قد أمسك بزمام الحكم لفترة قصيرة فى السنوات التى أعقبت الحرب، وهو جزء من الطريقة التى تطيح بها الأمة من حين لآخر بالمحافظين ؛ بسبب تخلفهم عن حقائق العصر ؛ وكون أنهم عادوا الآن إلى صهوة الجواد، فإن حزب النزعة الوطنية يمكن أن يستحق العودة إلى مكانه الصحيح تحت شمس السياسة فى زمن يناسب التتويج. لقد كان للمحافظون يدافعون عن العرش والكنيسة، ولكن الرأى القائل بأن لكل رجل محطة يجب عليها أن يعرف متى ينزل فيها، له وجاهته أيضًا.

والعلاقة بين الملكية والأرستقراطية وحزب للمحافظين والبناء الطبقى الإنجليزى كانت واضحة بما فيه الكفاية، على الرغم من أنها تسبيت فى إزعاج الإنجليز. فقد كان من الضرورى إظهار أنها كانت تخدم غرضًا ما أسمى. إذ كان جميع رجال الكنيسة فى انجلترا يذهبون إلى المدارس العامة وإلى جامعة أوكسفورد وكمبردج للدراسة، وكان لهم أن يبرروا العلاقة بين الطبقات فى الجلترا على أساس الاعتماد والمسئولية المتبادلة، لصالح الجميع. وفكرة أنه لا يجب أن تكون هناك طبقات اجتماعية إطلاقًا كانت ستبدو فكرة غريبة تمامًا عليهم. ولذلك كان التتويج احتفالاً بالطبقة، ولكنه احتفال ببناء طبقى له التزامات مشتركة وأغراض عامة (وبذلك يمكن أن يتوافق مع المبادئ المسيحية). ألم يكن هذا هو الدرس الذى حملته الحرب الحديثة، عندما كان الضباط البريطانيون، وغالبيتهم من الطبقة الوسطى أو العليا، يقودون الجنود من كافة الطبقات الأخرى الذين هم أدنى منهم عسكريًا واجتماعيًا لكى يحرزوا انتصاراً مجيداً؟

لقد كانت الطبقة رمزًا كامنًا فى التتويج. وكان الممثلون الرئيسيون فى الدراما إما من الأعضاء الكبار فى الأرستقراطية وإما من القساوسة الكبار فى كنيسة الجلترا. وبالاتفاق، لأنه فى مقابل كل صف من القساوسة كان هناك صف من النبلاء، كان أساقفة المدن يخاطبون بلقب «سيدى» وهى الصيغة المناسبة لمخاطبة أحد البارونات، وكان كبار الأساقفة يخاطبون بعبارة «صاحب العطوفة»، وهى الصيغة الملائمة لمخاطبة الدوق. وفيما بين القساوسة والنبلاء لم يكن هناك فرق حقيقى على المستوى الاجتماعى. وفى فقرة من مراسم التتويج عندما يجب على المشاركين أن يؤدوا يمين الولاء للملكة المتوجة، كان نظام التقدم نحوها يخضع لنظام طبقى صارم وفقًا للمعايير الطبقية الاجتماعية.

وكان أول من أدى يمين الولاء كبير أساقفة كانتربورى. وعلى أية حال سيكون من الخطأ أن نعتبر هذا بمثابة رمز على أنه فى الدستور الإنجليزى كانت السلطة الروحية خاضعة للسلطة الزمنية. ولكن الحال هى أنه فى شخص الملك تجتمع السلطتان الروحية والزمنية. ولم تكن هناك فى الكنيسة ولا فى الدولة سلطة أعلى من سلطة التاج. وهربرت ثورستون فى مقالته بدائرة المعارف الكاثوليكية، والتى سبقت الإشارة إليها، أوضح التأثير الكبير لتتويج أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على تطور التتويج فى جميع أنحاء أوروبا قبل العصور الوسطى. وحينما كانت مراسم التتويج تجرى فى روما، كان من ملامح التتويج ولاء الإمبراطور وقسمه بأن يخلص للبابا. والمقابل الواضح لهذه الأدوار فى التتويج الإنجليزى الحديث - وهو قسم كبير الأساقفة بالولاء للملكة - يبدو معقولاً أكثر إذا ما نظر إلى الملك على أنه حل محل البابا، وهو ما كان منذ زمن هنرى الثامن يشكل النظرية الدستورية.

وهكذا ركع الدكتور فيشر أمام الملكة ووضع يديه بين يديها ناطقًا بكلمات الولاء، وهى وعد بأن يخدمها بإخلاص وبصدق. وقد كرر الأساقفة الباقون من كنيسة انجلترا هذا، وركعوا جميعًا فى أماكنهم. وقام بنفس التصرف دوق إدنبره، زوج الملكة، الذى وعد بأن يكون «رجلك على مدى الحياة، وفى العبادة الأرضية...». والعلاقات التى تفرض هنا كانت فى أساسها علاقات إقطاعية - واجب الأدنى فى المرتبة الاجتماعية بأن يقدم الحماية بسلاحه لمن هو أعلى منه. وقد تبع الأمير فيليب اثنان آخران من الذكور البالغين الحاضرين من الأسرة الملكية، دوق جلوستر ودوق كنت، وهما بدورهما تبعهما طابور طويل من الدوقات والماركيزات والإيرلات، والفيكونتات والبارونات. وعندما انتهت مراسم الولاء - ولم يشترك أحد من العامة - دقت الطبول العسكرية، كما نفخت مجموعة من الأبواق، وأطلق الجمع كله صيحة مدوية «حفظ الله الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إلى الأبد!» على حسب ما كان مرتبًا فى المراسم.

وبغض النظر عن التغير فى الجنس، فإن هذه كانت هى بالضبط كلمات النشيد الذى ألفه هاندل والذى أنشدته الجوقة من قبل، والذى تم اقتباسه من سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩ (على نهج مسح الملك سليمان): «حفظ الله الملك، عاش الملك، عاش الملك إلى الأبد». يقول نص العهد القديم: «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان».

الذى يمكن أن يجده زائر من المريخ عجيباً فى هذا كله هو أنه يبدو أن له علاقة ما تربط انجلترا مع إسرائيل القديمة، ولكن لا علاقة له البتة ببقية الأراضى التى توجت الملكة لكى تحكمها. فما علاقة كل هذه الإشارات إلى الملك سليمان وصادوق الكاهن وهلم جرا، بشعب سيلان مثلاً أو مستعمرات بريطانيا في جزر الهند الغربية؟ وما الذى كان يفترض أن يخرج به الكاثوليك فى كندا أو المسلمون فى باكستان من هذه الإشارات؟ لماذا يجب على «مليكتهم» أن تقسم بأن تسبغ حمايتها على ديانة واحدة فقط فى جزء واحد فقط من كل هذه الأراضى الكثيرة؟ ولماذا يجب عليهم أن يهتموا بشأن نزاع قديم ما مع الكنيسة الكاثوليكية؟ فالواقع أن سريلانكا (سيلان سابقا) قد اختارت أن تصبح جمهورية سنة ١٩٧٢م. كما اختارت باكستان هذا سنة ١٩٥٦م، وجنوب أفريقيا سنة ١٩٦١. وتبعتها بلاد أخرى كثيرة، خاصة مستعمرات بريطانيا السابقة فى أفريقيا. وبقيت مستعمرات بريطانيا السابقة فى الكاريبى من أملاكها (والملكة هى رئيسة الدولة) وكذلك فعلت كندا، على الرغم من أن الجزء الفرنسى بها بقى قلقًا من أجل الاستقلال الذاتى. وفى استراليا ونيوزيلندا النزعة الجمهورية مسألة حية، على الرغم من أن هذه النزعة موجودة فى استراليا أكثر منها فى نيوزيلندا. ومن ثم فإنه من السهل استنتاج أن التتويج كان أبعد ما يكون عن جمع شمل بلاد الكومنولث البريطانى والإمبراطورية سويًا، وإنما كان إما عامل تقسيم وفرقة، أو كان خروجًا كبيراً عن الموضوع فيما عدا كونه مشهداً للفرقعة ومهرجانًا. لقد كان يتعلق بالإنجليز وهم يحادثون أنفسهم فى مصطلحات لا يفهمها أحد سواهم.

والحقيقة أنه كانت ثمة رابطة، وهى رابطة غاية فى العمق والشمول. وعلى الرغم من أنها كانت ماثلة فى أذهان الشعب الإنجليزى وهو يشاهد حفل التتويج بالضرورة، فإنه لم يحدث أن تم التصريح بها علنًا فى أى مكان؛ إذ إن الرابطة بين كل هذه الأمم الممثلة بطرق مختلفة فى دير وستمنستر فى ذلك اليوم من سنة ١٩٥٣، هى أنه فى فترة ما من ماضيها، قد استوطنها أوغزاها أبناء تلك الأمة التى تسمى بريطانيا العظمى والتى تشكل انجلترا أربعة أخماسها. وكانت القوة الدافعة فى حملة الغزو الكبرى هذه وموجة الاستيطان الكبرى التى صاحبتها هى بالضبط الاعتقاد الإنجليزى بأن أمتهم قد اختارها الرب وحدها للدور فريد فى تاريخ العالم. وكان دور

هذه الأمة المختارة، التي ورثت مهمة إسرائيل القديمة، هي نشر الحضارة الإنجليزية- أي الحضارة البروتستانتية- في أركان الدنيا الأربعة. وأولئك الذين قاوموا إنما كانوا يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم جانبًا، أو استئصالهم، إذا دعت الضرورة للملك. لقد كان التتويج احتفالاً بهذا التاريخ غير العادي، وأعطى الأمة الإنجليزية قدرًا هائلاً من الرضى. وكانت أوائل خمسينيات القرن العشرين فترة لا تناسب الشعور بالذنب من الاستعمار بحيث تقضى على شعور الرجل الإنجليزي بالفخر بإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس حتى سنة ١٩٥٣م. إذ كانت الإمبراطورية شيئًا ينبغي شكر رب الإنجليز عليه. إنه هو الرب الذي جعل هذا ممكنًا.

ونتيجة تحليل مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م هي مجرد وضع رصيد كبير من التاريخ والأساطير واللاهوت. وفي قلب هذه الأيديولوچيا (وليس هناك اسم آخر لها) تكمن فكرة الاختيار، ميثاق قائم على أساس علاقة تصنيفية بالتاريخ المسجل في العهد القديم. وكان الافتراض هو أن التاريخ الإنجليزي سوف يحدث في خطوط موازية لتاريخ بني إسرائيل القديم، بحيث إن ما كان حقيقيًا وصحيحًا في تاريخ بني إسرائيل سيكون أيضًا، وبمعنى ما، صحيحا وحقيقيا في تاريخ الإنجليز. ولن تكون التشابهات واضحة على الدوام. كما أن التفسيرات سوف تختلف. **ولكن في كل الأحوال إذا كانت انجلترا غير مخلصة للرب، فإن الرب سوف يعاقبها بالهزائم والمصائب؛ أما إذا كانت انجلترا مخلصة، فإن الرب سيكافئها بالنصر والسلام والازدهار. وبشرط الحفاظ على الميثاق، فإن الرب سوف يتدخل في أوقات الخطر الداهم. فإن الإعصار الذي ساق أسطول الأرمادا الإسباني إلى الصخور سنة ١٥٨٨م قد عرف باسم «الريح البروتستانتية».** كذلك فإن مثل هذه الثقة لم تكن غائبة في أوقات أكثر علمانية. إذ إن القصة العتيقة عن هذا الطريق البروتستانتي إلى الخلاص- والتي تروى عن أحد الأفراد ولكن يمكن تطبيقها بسهولة تامة على البلاد بأسرها- كانت هي القصة التي كتبها چون بونيان تحت عنوان The Pilgrims Progress . والبطل يناضل لكي يشق طريقه صوب المدينة السماوية وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً، وينجو من مواجهة مرعبة في نقطة ما مع عملاقين قبيحين، هما الوثني والبابا. كان هذا الكتاب الثالث في ثلاثية بروتستانتية تتألف من النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس وكتاب فوكس

Book of the Martyrs ، وهذه الثلاثية حددت ما ينبغي أن يكون عليه الرجل الإنجليزي البروتستانتي. وحسبما تكتب ليندا كولى، فإنه بهذه الوسيلة تم تعليم الدرس بأن المعاناة والتعرض المتكرر للأخطار هي من علامات الرحمة، وإذا ما قوبلت بالصبر والتجلد انتهت بالنصر والفوز تحت رعاية الرب:

«هذه الطريقة في إضفاء المعنى على الأحوال المعاكسة، ومواساة أنفسهم في مواجهتها استمرت بشكل بديل في القرن العشرين. فأثناء الحرب العالمية الأولى كان جنود بريطانيا في الخنادق يرجعون باستمرار إلى كتاب Pilgrims Progress ، بل إن البعض كانوا يقارنون أنفسهم بكريستيان بطل الرواية. . . وتشبه أنفسهم بكريستيان كان من الواضح أيضا أنه طريقة لتشجيع أنفسهم وتقويتها ضد الخطر والمعاناة، كما أنها طريقة للتأكيد لأنفسهم أن قضيتهم عادلة. وعول البريتون على الثقافة البروتستانتية أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما ساق الألمان الجيش البريطاني خارج فرنسا سنة ١٩٤٠م متقهقراً، ولم يتم إنقاذ الناجين سوى بجهود عشوائية وجزئية قامت بها جماعات من أصحاب القوارب المدنية الشجعان في عملية فشل مزرية، فإن هذه الحادثة تحولت بسرعة على أيدى البريطانيين أنفسهم إلى عملية إنقاذ ميمونة؛ إذ إنهم بالغريزة وتحت الضغط ضمنوا هذه الحادثة في التفسير البروتستانتي لتاريخهم، وصاغوا المبدأ الأخلاقي المعتاد: أن الممارسات المتحضرة بين البريتون المتحضرين قد كسبت بفضل العناية الإلهية ضد عدو قوى وشرير».

وطبعًا رتب الرب أن يكون البحر هادئًا، في هذه الأيام الأربعة الحساسة، ولو أن عاصفة هبت، لما أمكن تحقيق مثل هذا الهروب.

وعلى العموم كان البريطانيون، والإنجليز خاصة، خجلين من أن يعلنوا هذه العلاقة الخاصة مع الرب، وبقدر أكبر مما أحس به الأمريكيون ـ بالتأكيد ـ من خجل. وعند النظرة الأولى كان هناك الكثير من التعبير الإنجليزي للمخفف النمطي في مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م. إذ كان التباهي أو الإعلان بشكل صارخ أن الإنجليز هم الأفضل. هذه القناعة العميقة بالخصوصية الوطنية كانت ثمينة بحيث لا يمكن استعراضها. إذ كان يكتفى بالإشارة إليها، ولا تعلن تمامًا أبدًا. ولا يعنى هذا أنها لم تكن محل مشاركة عامة. وهناك دائمًا بعض أشياء لا يشعر الناس أنهم بحاجة

إلى أن يقولوها، لا سيما حينما تكون متضمنة فى المؤسسات الوطنية المألوفة مثل الملكية أو الكنيسة القائمة.

ويمكن استجلاء الحالة الذهنية الإنجليزية فيما بين سنة ١٩٤٠م وسنة ١٩٦٠م من مقالة مؤثرة عنوانها: The Idea of Christian Society كتبها ت. س. إليوت، الذى كان أثناء حياته يعتبر ليس فقط أكبر شعراء العصر، ولكنه كان يعتبر كذلك أشهر محلل اجتماعى. وبشكل أو بآخر أخذ إليوت الرغبة فى وجود مجتمع مسيحى، متمايز عن للمجتمع العلمانى أو الوثنى، وكتب:

«ولكن الثقافة الإيجابية يجب أن يكون لها نظام قيم إيجابى، ويجب أن تبقى المخالفات هامشية، بحيث لا تميل سوى إلى تقديم إسهامات هامشية... وإذا ما كانت فكرة المجتمع المسيحى مستوعبة ومقبولة، فيمكن تحقيقها إذن، فى انجلترا، من خلال كنيسة انجلترا... وقد تمسكت بأن فكرة المجتمع المسيحى تتضمن بالنسبة لى وجود كنيسة واحدة ستهدف إلى احتواء الأمة بأسرها. وما لم يكن لها هذا الهدف، فإننا سننزلق إلى ذلك الصراع بين المواطنة وعضوية الكنيسة، وبين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة، وهو الصراع الذى يجعل الحياة الأخلاقية اليوم غاية فى الصعوبة للجميع...» [وهو يعنى بالاحتواء التضمن أو الاحتضان].

وبعد نصف قرن من التتويج، صار البريطانيون معتادين على التعامل مع احتفالات الكنيسة باعتبارها ممارسة فى تصريح شاعرى. والأزواج الذين لا يؤمنون بالرب، أو الذين ليس لديهم قصد بالاستمرار فى الزواج فترة أطول مما يشعرون أن يروق لهم، يذهبون بانتظام إلى الكنائس الوطنية لكى يقطعوا على أنفسهم عهداً أمام المذبح وأمام الرب القوى «حتى يفرقنا الموت». وما يزال كثيرون منهم يعمّدون أبناءهم ـ التنصير هو التعبير الأكثر شيوعاً حتى الآن ـ بينما هم لا يعنون كلمة واحدة من الوعود التى يتطلب منهم أن يتعهدوا بها. وإذا كانوا يعرفون أى شىء عن مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م. فإن من المحتمل أن يفترضوا أن أولئك الذين شاركوا فيه فعلا قد فعلوا هذا بنفس روح التمثيل الرّصينة ولكن دونما إخلاص. وسيكونون مخطئين فى هذا. لقد بدأ تآكل لغة الاحتفال، ولكن كنيسة انجلترا كانت ما تزال تحظى باحترام كبير، ولا يمكن العبث بها. وكان من المفترض أن الخدمات العامة التى تقوم بها تعنى ما قيل إنها تعنيه.

وإذا ما كان مطلوبًا القيام بمواءمات عقلية لفهمها، فقد كانت فقط المواءمة من اللغة الواقعية إلى اللغة الرمزية ومن فك رموز الأعمال الطقسية. وكان ذلك ما يزال يمثل نوعًا ساريًا من الحقيقة. هذه المقاربة إلى معنى الطقوس الكنسية قيض لها فيما بعد أن يتم التصديق عليها من جانب لجنة العقيدة فى كنيسة انجلترا سنة ١٩٨١م، وهو ما قرر بوضوح أنها كانت تحاول أن تؤسس ما كان منذ زمن طويل الأسلوب الأنجليكانى فى هذه الأمور: «إن هذه المعتقدات التى تستحوذ على عقول الناس بالتضمين لها قوة إقناع كبرى من التأكيدات... وكلما كانت المذاهب أكثر شمولاً وأساسية؛ فإنه يحتمل أكثر أن يتم حفظها فى الأساطير والرموز والطقوس ونماذج السلوك فى الجماعة المؤمنة بدلاً من أن توضع بوضوح فى الاقتراحات الرسمية».

ولذلك، إذا كانت أيمان التتويج التى تم القسم بها ذات جزئين عن الإدارة المدنية للكومنولث والإمبراطورية التى تضم حوالى ٤٠٠ مليون نسمة، وأربعة أجزاء عن الحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، فإن هذا أوضح فقط مدى أهمية كنيسة انجلترا. وإذا كان هذا صحيحًا حقًا، كما كتب وليم تمبل سنة ١٩٤١م ، أن كنيسة انجلترا كانت المؤسسة الدينية الفريدة فى العالم التى أخذت المسيحية بشكل صحيح، على حين أخذها الباقون بشكل خاطئ، وإذا كان أخذ المسيحية بطريقة صحيحة قد صنع الفرق بين الأرواح الذاهبة إلى السماء بعد موتها أو الذاهبة إلى الجحيم، فإن كنيسة انجلترا إذن كانت حقًا من الأصول الوطنية، ولها أهمية لا تبارى باعتبارها قيمة مركزية. وكان هذا هو أكثر ما يفخر به الإنجليز ويحمدونه. فقد كان فى قلب ميثاقهم مع الرب. والوعود بالإدارة المدنية الحكيمة وبالعدالة والرحمة فى ساحات القضاء، كانت ذات أهمية أدنى بالمقارنة مع هذا.

وفيما بعد، كانت كنيسة انجلترا نفسها تدخل فى نوع آخر من التناول لاحتفالاتها وتكرر الكلمات كما لو كانت حقيقية دون أن يكون هناك اقتناع كامل ونهائى بها. وحقيقة أن الأجيال السابقة من الأنجليكان قد أخذوا كلماتها الرسمية باعتبارها أفعالاً حقيقية حرفيًا كانت لها قيمة برهانية، بيد أنها ليست تعهدية. ومن الواضح أن عادة رجال الإكليروس فى النطق بكلمات رزينة فى المناسبات العامة، فى حين لا يوافقون عليها بينهم وبين أنفسهم، كانت عادة واسعة الانتشار.

ولكن هذه لم تكن حالة الكنيسة سنة ١٩٥٣م؛ إذ كانت مراسم التتويج تعنى أن ما يقال هو المعنى حقًا. وعدم الحفاظ على أن ما يقال هو المعنى قيض له أن يصبح فيما بعد عاملاً قويًا فى هدم الثقة العامة فى الديانة الرسمية، فقد اعتبرت كلها تدريجيًا استعراضًا بلاغيًا وأسطوريًا ودينيًا. أو أنها غير حقيقية بالمرة. وهذه هى المتاعب التى تنجم عن دستور غير مكتوب، ويمكن أن يتفكك. ولا يوجد شخص إنجليزى يؤمن حقًا بكل شيء كان التتويج قد حدث من أجله: بل إن كثيرين الآن لا يؤمنون بأى شيء فيه. وكل أمريكى يؤمن بكل شيء يدافع عنه الدستور الأمريكى.

وليس هناك بعد آخر لمراسم التتويج لم يكن واضحًا فى الحال لأى مراقب من الخارج؛ إذ إن قسم التتويج الذى أقسمته الملكة كان يتضمن الإيماء إلى تهديد غير محدد. فلماذا كان عليها أن تقسم على أن تستخدم «أقصى سلطتها» للحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، ما لم يكن أحد آخر، لم يحدد بالاسم، يحاول سرقتها؟ وليس هنا مفتاح يدلنا على طبيعة التهديد سوى كلمات «البروتستانتية الإصلاحية» على ما يبدو. ومن هناك يصبح التهديد أوضح قليلاً. إنه تهديد معاد للبروتستانتية، وبعبارة أخرى هو التهديد الكاثوليكى الرومانى. وهو البابا الذى صوره چون بونيان فى قصته الخرافية.

والإشارة إلى التهديد الكاثوليكى يصبح أكثر وضوحًا إذا ما أخذ المرء فى اعتباره التاريخ الماضى لقسم التتويج فى انجلترا. فقد كان القسم الذى أقسمته الملكة إليزابيث الثانية فى دير وستمنستر بالتمسك بالديانة البروتستانتية، كان أحد قسمين يتطلبها القانون الدستورى الإنجليزى. وفى صعودها على العرش بعد وفاة والدها الملك چورچ السادس، كان مطلوبًا منها أيضًا أن تقسم أمام البرلمان: «إننى أعترف برصانة وإخلاص فى حضور الرب، وأشهد وأعلن أننى بروتستانتية مؤمنة وأننى سوف أبقى كذلك، حسب القصد الحقيقى للقوانين، وسوف أضمن التتابع البروتستانتى إلى عرش مملكتى، وأتمسك وأحافظ على مثل هذه القوانين قدر طاقتى».

كانت تلك هى صيغة الكلمات التى أقرها البرلمان منذ سنة ١٩١٠م، حينما تمت مراجعتها بناء على إصرار چورچ الخامس الذى كان قد اعتلى العرش لتوه بعد وفاة إدوارد السابع؛ إذ إنه اعتبر أن القسم الذى أقسمه أبوه سنة ١٩٠٢م إهانة وعدوانا

على كثيرين من الرعايا الكاثوليك الرومان فى الإمبراطورية البريطانية ـ ولا غرو ، فإن كلمات القسم قبل سنة ١٩١٠ درس موضوعى فى كيفية إمكان جعله عدوانيا . وكانت هناك شكاوى مريرة بشأن الكلمات التى لم تراجع فى القسم، جهر بها الكاثوليك فى أيرلندا واستراليا، التى يسكن بها عدد كبير من الأيرلنديين الكاثوليك، وفى كندا التى يسكن بها كثيرون من الكاثوليك الفرنسيين، وكذلك للمحاولات المختلفة للتعديلات فى مجلس العموم. ولذلك كانت صيغة القسم سنة ١٩٥٣م صيغة توفيقية .

كان الإعلان الملكى الذى كان على الملكة إليزابيث أن تعلنه أمام البرلمان، والذى أقسمه بالفعل إدوارد السابع وڤيكتوريا وكل الملوك منذ وليم ومارى سنة ١٦٨٩م بالفعل. كالتالى :

«أنا . . . . برحمة الرب، ملك (أو ملكة) انجلترا وسكوتلندا، وأيرلندا، المدافع عن العقيدة، أنطق برصانة وإخلاص فى حضرة الرب، وأشهد وأعلن أننى أؤمن أنه فى العشاء الربانى ليس هناك حلول لعناصر الخبز والنبيذ فى جسد المسيح ودمه عند عمل القداس أو بعده من جانب أى شخص كان : وأن بدعة أو تبجيل مريم العذراء أو أى من القديسين الآخرين، والتضحية فى صلاة القداس، كما تستخدم الآن فى كنيسة روما، أمور خرافية ووثنية. كما أننى برصانة أنطق وأشهد وأعلن فى حضرة الرب، أننى فعلاً أصرح بهذا الإعلان، ومن ثم كل جزء، بالمعنى الواضح والمعتاد للكلمات التى تليت على، والتى يفهمها عمومًا البروتستانت الإنجليز» .

كانت المذاهب التى يجب إنكارها هى المذاهب المميزة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية والتى كانت كنيسة انجلترا ترفضها، ولذلك كان من الشائع عالميًا أن الكاثوليك الرومان المؤمنين لا يمكنهم أن يقسموا هذا القسم. والمادة ٢٢ من المواد التسع والثلاثين فى ديانة كنيسة انجلترا أعلنت : «إن المذهب الرومانى الخاص بالتطهر، والمغفرة، والعبادة والعشق الدينى، وكذلك فيما يتعلق بالصور والذخائر المقدسة، وكذلك تبجيل القديسين، هو شىء بعيد التحقيق مبتدع بلا فائدة، ولا يقوم على أى أساس من الكتاب المقدس، ولكنه بالأحرى، رفض لكلمة الرب». وقد قررت المادة ٢٨ : «إن الحلول أو تحول مادة الخبز والنبيذ فى العشاء الربانى لا يمكن البرهنة عليه من

الكتاب المقدس، ولكنه خروج على كلمات الكتاب المقدس الواضحة، ويطيح بطبيعة السر المقدس، كما أنه أتاح الفرصة لظهور خرافات كثيرة». والمادة ٣١ أدانت التضحيات فى صلاة القداس، والتى يشيع فيها القول إن الكاهن قدم المسيح للمريض والميت لكى يرفع عنه الألم أو الذنب، كما أنها وصمت هذه الأمور بأنها خرافات وتجديف، وخداع خطير. ومنذ سنة ١٨٦٥ كان على رجال كنيسة انجلترا أن يعلنوا أن المذهب الذى تتضمنه المواد «يتوافق مع كلمة الرب» التى كان مفهومًا أن من الزيف أن يحلفوا بأنها توافقهم، وهو ما كان يطلب منهم القيام به من قبل.

وطلب أداء يمين التتويج قد أرسى فى مرسوم الاستيطان سنة ١٧٠١م. وهذا أيضا يعلن أن أى شخص «يأخذ التاج أو يرثه... ويتصالح أو سوف يتصالح مع كنيسة روما أو يتصل بها، أو ينطق بالديانة الرومية، أو يتزوج أحد رعاياها... سوف يعامل كما لو كان ميتًا من الناحية القانونية بالنسبة لمسألة اعتلاء العرش، ويتم تجاوزه بحيث يمر التاج إلى من يليه فى أحقية العرش (بشرط ألا يكون من يلونه فى خط الوراثة غير مؤهلين مثله)». ويعلن المرسوم أيضًا أن «كل من يأخذ هذا التاج من الآن فصاعدًا، سوف يرتبط بكنيسة انجلترا، حسبما قرره القانون المستقر».

وكون هذا القسم العام غير العادى كان مطلوبًا من الحاكم البريطانى أمر يدعو إلى السخرية إلى حد ما. فبحلول سنة ١٩١٠م لم يعد مطلوبًا من أى من رعاياه أن يقسم هذا القسم. وكان هذا عكس الحالة التى تقدم فيها هذه الكلمات للمرة الأولى، وتحت ما كان معروفا باسم «مرسوم الاختبار» - وهو مصطلح يدل على سلسلة من القوانين المضادة للكاثوليكية، بعضها يمكن تطبيقه على انجلترا، وبعضها على أيرلندا، وبعضها على المستعمرات. ففى البداية، كان القسم المعادى للكاثوليكية مطلوبًا من الرعايا، ولكن ليس من الحاكم. وأداء هذا القسم كان شرطًا للتعيين فى وظائف كنيسة انجلترا، وشرطا لدخول جامعتى أوكسفورد وكمبردج، وشرطًا للالتحاق بالجيش أو البحرية الملكية، ولا بد من أداء هذا القسم للانضمام إلى السلك القضائى أو للدخول فى عضوية البرلمان.

ويرجع أكثر الأيمانات تطرفًا فى مرسوم الاختبار إلى سنة ١٦٧٨م. وكانت تلك هى سنة الكشف المزعوم الذى قام به شخص يدعى تيتوس أواتيس لمؤامرة أعدها

عدد من الكاثوليك، وفيهم بعض الچيزويت، لقتل الملك شارل الثانى وإجلاس دوق يورك (وهو الملك چيمس الثانى فيما بعد، والذى كان آخر ملوك انجلترا الكاثوليك) على العرش مكانه. وقبل أن تدرك السلطات أن أواتيس قد لفق الأمر كله، كان قد اتهم حوالى خمسة وثلاثين شخصا من الكاثوليك بتهمة الخيانة، وكان آخر ضحية فى سنة ١٦٨١م، هو كبير أساقفة أرماغ الكاثوليكى، أوليڤر بلنكت، الذى تم تكريسه الآن شهيداً فى الكنيسة الكاثوليكية. وقد كان الكاثوليكى الأخير الذى يموت فى سبيل العقيدة فى انجلترا. وقد لحق العار بتيتوس أواتس، وسجن كما فرضت عليه غرامة مالية وتم جلده، ولكنه عاد إلى الحظوة مرة أخرى بعد سقوط الملك چيمس الثانى، وأعطته الدولة معاشا تقاعدياً.

وكانت هناك أيمانات ضد الكاثوليكية قبل سنة ١٦٧٨م، وكان أحدها يصر على أن من يؤدى القسم يجب أن ينكر حق البابا فى عزل أى حاكم إنجليزى (وهو ما نتج عن الحرمان البابوى الذى أصدره البابا ضد الملكة إليزابيث الأولى ومحاولة عزلها سنة ١٥٧٠). بل كان هناك قسم أكثر بساطة يعود إلى القرن السابع عشر ينكر مذهب الحلول الكاثوليكى، تسبب فى أن يستقيل دوق يورك من منصبه كقائد بحرى أعلى Lord High Admiral . ولكن من دلائل التناقض، أنه بينما كان ممنوعًا بالقانون من خدمة أخيه الملك، فإن القانون نفسه لم يكن يمنعه من أن يصبح هو نفسه الملك. وكان أحد مشروعاته الكبرى خلال فترة حكمه القصير، وأيضا أحد الأسباب الكبرى فى خلعه بواسطة البرلمان سنة ١٦٨٨م، يتمثل فى رغبته فى إلغاء مرسوم الاختبار أو تعديله على الأقل (وكان قد أوقفه بالفعل فى نيويورك حينما كانت لفترة من الزمن تحت إدارته المباشرة باعتباره دوق يورك. بل إنه عين حاكما كاثوليكيًا وموظفًا كاثوليكيًا آخر).

وكان بعض الكاثوليك قد حاولوا بالفعل تحييد قوة الصيغة السابقة بأنها لم تكن تعنى ما يبدو أنها تعنيه. ومن ثم جاءت الإشارة الغريبة فى نسخة سنة ١٦٧٨ إلى «المعنى العادى والواضح للكلمات التى تليت علىّ، كما هى مفهومة بشكل عام من جانب البروتستانت الإنجليز». وعلى الرغم من الدّس فى اللغة، فلم يكن الكاثوليك يعتقدون أن البابا يمكن أن يعفو الناس من القسم إذا ما تم أداؤه. وربما كان البرلمان الإنجليزى يفكر فى نفسه. إذ كان يدعى أن له سلطة الإعفاء من القسم، وألغى يمين

الولاء للملك چيمس الثانى بعد أن سيق إلى المنفى سنة ١٦٨٨م. ورفض ثمانية أساقفة من كنيسة انجلترا، كان معظمهم معارضين لسياسات چيمس الثانى الدينية، أن يتخلوا عن يمين الولاء الذين أقسموا عليه، وفقدوا وظائفهم. وكان هناك حوالى ٤٠٠ من رجال الكنيسة الأنجليكانية أيضا بين هؤلاء «اللامحلفين».

وقد تم إلغاء مرسوم الاختبار نهائيًا سنة ١٨٢٩م، على الرغم من أن الشائعات بأن الحكومة تنوى إلغاءه كانت أحد العوامل التى أدت إلى أحداث شغب جوردون فى لندن سنة ١٧٨٠م. والواقع أن الإلغاء الحقيقى لمرسوم الاختبار فى كندا كان من الأسباب التى أسهمت فى الحرب الثورية الأمريكية ضد البريطانيين، ومن ثم استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا. وكان الغزو العسكرى لكندا - بما فيه الحصار القصير المدى للعاصمة كويبك - كان أحد أوائل المغامرات التى قامت بها القوات العسكرية للجمهورية الجديدة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وأقلها نجاحًا.

وقد صمم مرسوم كويبك الذى صدر سنة ١٧٧٤م للتعامل مع الأسئلة الكبرى التى ثارت أثناء محاولة جعل المستعمرة الفرنسية فى كندا إحدى مقاطعات الإمبراطورية البريطانية فى أمريكا الشمالية. ومن بين هذه الأسئلة كان السؤال عما إذا كان يمكن جمع مجلس عندما يكون كل سكان مقاطعة كويبك تقريبا، من الكاثوليك الرومان، وبالتالى سيكونون بسبب مرسوم الاختبار، لا يصلحون قانونًا لأن يمثلوا الشعب، وما إذا كان سيسمح لممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية بالاستمرار، وعلى أية شروط؛ وما إذا كان القانون الفرنسى أو الإنجليزى هو الذى سوف يستخدم فى ساحات العدالة.

والمرسوم، بإعلانه أن ليس من المناسب دعوة مجلس للانعقاد، وضع سلطة التشريع فى أيدى الحاكم ومجلسه الاستشارى. ولكن ممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية صارت مسموحًا بها، وخولت الكنيسة سلطة الاستمرار فى جمع العشور. واكتسحت أمواج الأحداث مرسوم الاختبار، واستبدل قسم الولاء بحيث يتم السماح للكاثوليك الرومان بتولى الوظائف. وقد أدى هذا إلى انتشار المخاوف فى المستعمرات الأمريكية من أن مرسوم كويبك قد يرى إحياء الحكم

الفرنسي؛ لأن فرنسا في ذلك الوقت كان ينظر إليها على أنها من الممكن أن تعادي المستعمرات لحساب بريطانيا.

ولكن دائرة المعارف البريطانية، والتي منها أخذنا هذا الملخص للقصة، سياسية في توجهها أكثر من اللازم. فقد فشلت في أن تذكر التأثير القوي للشعور الخالص بمعاداة الكاثوليكية على غزو كندا. فعلى سبيل المثال، كان الكونجرس القاري، الذي اجتمع في سبتمبر ١٧٧٤م، قد عبر عن غضبه الشديد للجمهور البريطاني من أن «البرلمان البريطاني ما كان يجب أن يوافق أبدًا على أن يؤسس في هذه البلاد، أي كويبك، ديانة أغرقت جزيرتكم في الدماء». ومن الواضح أن أعضاء الكونجرس كانوا معتادين على اضطهاد البروتستانت في القرن السادس عشر تحت حكم الملكة ماري الأولى الدموية حسبما ورد في كتاب فوكس «كتاب الشهداء ـ Book of Martyrs»، وأخذوها أمرًا مسلمًا به أن البريطانيين سيوقعون بهم نفس الاضطهاد. وصحيفة Pennsylvania Packet، قالت إنه لم يكن هناك أبدا من قبل مثل هذه المحاولات المكشوفة ضد نجاح الديانة البروتستانتية. ويوم البابا في الخامس من نوفمبر (يوم جاي فوكس بالنسبة للإنجليز) تم الاحتفال به بنوع خاص من الغضب سنة ١٧٧٤م. وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى منع واشنطون جيشه من الاحتفال باليوم، خوفًا من إغضاب أصدقاء أمريكا الكاثوليك الجدد، أي الفرنسيين.

هكذا تغذت الحملة على كندا بنفس الغضب البروتستانتي الذي تسبب في قيام غوغاء لندن بأعمال الشغب بعد ذلك بخمس سنوات، وحرقوا ونهبوا كل ممتلكات الكاثوليك التي استطاعوا العثور عليها في أنحاء المدينة. وكان هدف المشاغبين المباشر هو مرسوم التخفيف عن الكاثوليك الصادر سنة ١٧٧٨م، والذي ألغى بعض العقوبات القانونية على ممارسة العقيدة الكاثوليكية. ولم يذهب إلى المدى الذي ذهب إليه مرسوم كويبك بحيث يلغي مرسوم الاختبار، على الرغم من أن اللورد جوردون قائد الشغب كان به هوى إلى افتراض أن ذلك سوف يأتي فيما بعد. ورواية تشارلز ديكنز «Barnaly Rudge» تقدم لنا صورة حية عن الواقعة. ولكن لا غزو كندا، ولا أحداث الشغب في لندن، قد جلبت أية فوائد لزعمائها. إذ تم القبض على اللورد جوردون وحوكم ثم عزل، ولكنه فيما بعد مات بالسجن في مسألة أخرى لا علاقة لها بالموضوع. أما بندكت أرنولد، القائد الأعلى للقوات

العسكرية الذى نجا من الحملة الكندية ، فقد خان جماعته لصالح البريطانيين ، وهو يصنف بوصفه خائنًا حتى اليوم.

هذا العدوان الأمريكى على التراب الكندى حال دون أى احتمال لأن ينضم غالبية الكنديين لجيرانهم الجنوبيين فى التمرد ضد التاج (على الرغم من أن بعض الكنديين البروتستانت المتشددين ارتحلوا بالفعل إلى الجنوب عندما انتهت الحرب ضد بريطانيا)، وكذلك لم تكن الأيمان التى تقسم بكبت الكاثوليكية لصالح أمريكا الشمالية بعد ذلك. وربما كانت لحقيقة أن الكاثوليك من فرنسا حاربوا فى الجانب الأمريكى أثرها على الرأى العام الوطنى. والمادة رقم ٦ من دستور الولايات المتحدة، والسارى منذ سنة ١٧٨٩م، أرست مبدأ أنه «لن يطلب أى اختبار دينى أبدًا كمؤهل لشغل أى منصب أو وظيفة عامة فى الولايات المتحدة». واستخدام كلمة اختبار يحمل دلالة واضحة؛ إذ إن هناك شرطًا مماثلاً مكتوبًا فى دساتير معظم الولايات الأمريكية.

وراى رفائيل فى كتابه The American Revolution ,a Peoples History صريح بشكل محمود فيما يخص التعصب الكامن وراء الحملة الكندية.

«وإذ كان القادة العسكريون الأمريكيون يأملون فى إحياء الحماسة الوطنية، فإنهم قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة بأن يضربوا حيثما يكون البريطانيون ضعافًا. وفى المقابل يصعب رؤية كيف أن غزو مستعمرة أجنبية له علاقة بالحرب ضد الطغيان داخل الوطن، بيد أن الأمريكيين المنغمسين فى الديانة البروتستانتية لم يجدوا مشكلة كبيرة فى صياغة وتلفيق الحافز لغزو معقل الكاثوليكية على حدودهم الشمالية. إذ كانت بريطانيا منذ وقت قصير قد وضعت كل الأراضى غرب الأپالاش تحت السيطرة الكندية، بينما منحت فى الوقت نفسه الاعتراف الرسمى بالكنيسة الكاثوليكية فى كويبك. ولاحظ البروتستانت الأمريكيون من كل المذاهب من الشماليين الجماعيين حتى الجنوبيين الأنجليكانيين، التشابه الواضح بين الطغيان السياسى للملك البريطانى والطغيان الدينى للبابا الكاثوليكى: وفى كل من الحالين كان ثمة حاكم مستبد يتدخل فى حرية الأفراد بحيث يحول بينهم وبين أن يعيشوا ويتعبدوا كما يشاءون. وكانت الحملة على كندا، وهى عملية تنظيف قارية باسم

الحرية الدينية والسياسية، تحمل وعوداً بخلع الطاغيتين فى الحال. وهنا حدث الشغب الأكبر فى يوم البابا - ولم يكتف بحرق الممتلكات هذه المرة. وتكلم أحد قساوسة الجيش عن الكثيرين عندما كتب فى يومياته: «كانت مشاهدات بهيجة عن اليوم المجيد للسلام العالمى وانتشار الإنجيل فى أنحاء هذه البلاد الشاسعة الممتدة، والتى كانت على مدى العصور سكنًا للشيطان ومملكة للمسيح الدجال».

وفى ضوء هذا، فلا غرابة فى أنه قبل التتويج سنة ١٩٠٢م والتتويج سنة ١٩١٠م كانت الحكومة الكندية تضغط بشدة لتعديل الإعلان الملكى الذى يعلنه الملك البريطانى (والذى كان أيضا رئيس الدولة فى كندا) عند بداية حكمه. وكان المشرعون الكنديون قد تحرروا من اضطرارهم لأداء اليمين بمثل هذا الإعلان المجافى والمعادى للكاثوليكية سنة ١٧٧٤م، كما تعين عليهم فى الواقع أن يحاربوا لدفع غزو أمريكى كان غرضه الرئيسى، بلا شك، هو إعادة فرض هذا الإعلان بالبندقية التى تحارب فى سبيل الحرية. وكون أن هذا لم يكن موضوعًا محبوبا لدى المؤرخين الأمريكيين لفت انتباه كيفين فيليبس فى كتابه «The Cousins Wars»: **«بالنسبة لكثير من البريتون والمستعمرين البريطانيين فى القرن الثامن عشر، كان المذهب الكاثوليكى الرومانى مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية والحكومة الفردية المستبدة الطاغية. . . وقد تابع المؤرخون البريطانيون هذا الإصرار الدينى بهمة أكثر بكثير من زملائهم الأمريكيين، ولكن كلاً من البلدين قد تأثر بهذا».**

وفى كتابه «The Language of Liberty» سمى المؤرخ جـ. سى. دى كلارك خبث وقوة المعاداة الأمريكية الشعبية للكاثوليكية: الموضوع المكبوت فى التاريخ الاستعمارى الأمريكى. وكتاب التاريخ الذى ألفه رفاتيل يؤكد هذا بدلاً من أن يواجهه؛ لأنه كتب بعد كتابه تعليق فيليبس، ولأنه نوع ما من التاريخ المضاد، نظرة مراجعة للفروض المقبولة فى التاريخ الأمريكى.

ويمتدح فيليبس البريطانيين لكونهم أكثر أمانة فى هذا الجانب من ماضيهم. حقًا أن كل آثار معادة الكاثوليكية قد أزيلت من الجوانب العامة والطقسية فى دستور الولايات المتحدة، وبداية تولى رئيس جديد مهام منصبه، عملية إذا لم تكن كلها علمانية فهى على الأقل ليست مناسبة مذهبية أو طائفية. ولم يكن هذا قد صار بعد هو المعمول به

فى الطقوس البريطانية المشابهة، أى مراسم التتويج. ولكن الاحتفال الأمريكى يميل إلى أن يعنى ما يقوله، على حين أن الاحتفال البريطانى لم يعد يفعل ذلك.

ولا ينبغى افتراض أن القصد العمد لأولئك الذين يشاركون فى مراسم التتويج هو عزل أو استبعاد أى كاثوليك حقيقيين أحياء، بأكثر مما كان قصد الناس الذين احتفلوا بيوم جاى فوكيس فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنويًا. فالواقع أن رئيس الاحتفالات فى دير وستمنستر يوم ٢ يونيو ١٩٥٣ - مثلما كان الحال فى حفل تتويج والد الملكة، الملك جورج السادس سنة ١٩٣٧م - كان بحكم التقاليد هو الأيرل مارشال لانجلترا، وهو منصب يتولاه أسمى النبلاء غير الملكيين فى المملكة وهو الدوق السادس عشر لنورفولك. وقد كان نورفولك كاثوليكيا رومانيًا راسخًا مثل أجداده - إذ كان أحدهم قد كرسه البابا شهيدًا كاثوليكيًا فيما بعد فى القرن السادس عشر. ومثلما شرحت بمزيد من التفاصيل فى فصول أخرى من هذا الكتاب، فإن الوظيفة الحقيقية لمعاداة الكاثوليكية فى النظرية الدستورية الإنجليزية منذ عصر الإصلاح الدينى كانت حماية الهوية الدينية والسياسية للدولة الوطنية الإنجليزية؛ إذ إن الكاثوليكية الرومانية تقوض الأساس اللاهوتى لهذه الهوية. وبطبيعة الحال، فإن هذه المعاداة المؤسسية للكاثوليكية ساعد عليها الانحياز الشخصى ضد الكاثوليك الأفراد. فقد كان من الأسهل إقناع الجماهير بأن الكاثوليكية مدانة إذا ما كان أولئك الذين يمارسون هذه العقيدة يصورون على أنهم مستهترون، بلا أخلاق وخونة (سواء كان ذلك حقيقة أم لا).

وثمة اعتراض خطير على هذه الطريقة فى فك رموز التتويج يمكن توقعه. وهو أنه على الرغم من الرمزية فإن أولئك المشاركين لم يكن لديهم أى وقت للمشاعر المعادية للكاثوليكية، وأنهم اعتبروا اليمين بالحفاظ على كنيسة انجلترا، مثل تحفة قديمة وبالجملة بقايا فارغة تنتمى إلى زمن غابر (تمامًا مثلما لو كان على الملكة أن تقسم على الحفاظ على سجل المآثر فى برج لندن). ومنذ ذلك الحين فصاعدا تحلت الهوية الوطنية الإنجليزية بثقة فى التتويج، بحيث إنها لم تكن بحاجة إلى أن تعرف نفسها بواسطة معارضة بعض الديانات الأخرى؛ إذ إن هذا ربما أعطى الكاثوليكية أهمية فى هيكل الأمور الإنجليزى أكثر مما تستحقه بالفعل.

وباعتباره ملاحظة اجتماعية يكتسى الاعتراض بعض الأهمية؛ إذ إن الحالة الفعلية للكاثوليكية فى إنجلترا فى خمسينيات القرن العشرين كانت حقًا إلى حد كبير لا علاقة لها بالفهم الذاتى الوطنى. إذ كانت لها أجندتها الخاصة، التى كانت تؤثر على بقية الوطن فقط حينما يكون هناك تصادم مصالح. وكما كتبت فى The worlock Archive كانت الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية سنة ١٩٥٣م، تحت قيادة الكاردينال برنارد جريفين، ولأسباب اجتماعية وتاريخية جيلة تماما، أبعد ما تكون عن العزلة. فقد حافظت على نفسها لنفسها. والواقع أن المراسم الأنجليكانية الخالصة فى التتويج فى تلك السنة ربما كانت مصممة على أساس إبعادها. فقد جددت الوطن بطريقة جعلت الكاثوليك يشعرون أنهم، وإن لم يستبعدوا تمامًا، فإنهم كانوا على الهامش. بيد أن الكاثوليك الإنجليز لم يكونوا راغبين فى تحدى الصعود الأنجليكانى بأى حال. ذلك أنهم فضلوا أن يهتموا بشئونهم الخاصة.

* * *

(٣)
تتابع المواثيق

لم يعد بوسعنا أن نأخذ مسألة الاعتياد والألفة مع الكتاب المقدس أمرًا بديهيًا، سواء العهد القديم أو العهد الجديد. وربما تكون الملكة ڤيكتوريا قد وصفته بأنه كنز العالم الذى لا يقدر بثمن. وهو ما يزال يشكل قطعة من الأدب الإنجليزى لا تبارى؛ إذ إنه ملىء بالاقتباسات، مثلما قال أحد الأشخاص عن شكسبير ذات مرة. وقد تسربت أجزاء منه إلى اللغة العامة. ولكن الجهل ببقية الأجزاء هو السائد دون منازع، مع أن هذا قائم فى انجلترا بشكل أكثر منه فى أمريكا. وإذ رأى أحد أساتذة الأدب الإنجليزى فى جامعة إنجليزية كبرى أنه يحرز قليلاً من النجاح مع طلابه الذين يدرسون شعر ميلتون، فقد تعين عليه أن ينظم لهم فصلاً دراسيًا مكثفًا لدراسة الكتاب المقدس. إذ كان الكتاب المقدس بالنسبة لجيلهم كتابًا مغلقًا بالمعنى الحرفى للكلمة.

بيد أن هذا عمل له تأثير مباشر على التاريخ الإنجليزى والأمريكى أكثر من غيرهما. وعلى الرغم من أن المرء يتعاطف مع السخط الذى أحس به الأستاذ، فإن دراسة الكتاب المقدس دراسة خالصة باعتباره مصدرًا أدبيًا، وحتى لو كان الهدف تحقيق فهم أكبر لأشعار ميلتون، أمر يشكل ترتيبًا غريبًا للأولويات.

ذلك أن كريستوفر هيل فى دراسته المحددة، والتى تحمل عنوان "The English Bible and The Seventeenth Century Revolution" يقول إن الكتاب المقدس لعب دورًا كبيرًا فى سبك الوطنية الإنجليزية، وفى تأكيد تفوق اللغة الإنجليزية فى مجتمع كان منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر محكومًا بالنورمان الناطقين باللغة الفرنسية. وفى سماحه بنشر نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس، كان هنرى الثامن «مهتمًا بشكل أساسى بتأمين استقلال انجلترا السياسى عن

البابوية». وهكذا كان جزءاً حاسماً من النضال لتأسيس أول دولة وطنية في العالم مستقلة بنفسها(*).

وفي الثورات الإنجليزية التي وقعت في القرن السابع عشر، تطلع كل الفرقاء صوب الكتاب المقدس يلتمسون العون والتأييد. ويؤكد هيل أنه بنهاية القرن الثامن عشر، وعلى النقيض من ذلك، لم يعد الكتاب المقدس يعتبر مصدراً للحقيقة كلها، بل إن حركة التنوير تجاهلته بالفعل. ولكن الأحكام تأتي ضد الأدلة إلى حد ما. فربما لم يعد الكتاب المقدس تفسيراً كلياً لكل شيء، كما كان من قبل. بيد أنه كان ما يزال صاحب تأثير كبير في السياسات؛ بسبب سيطرته على الخيال العام على أقل تقدير.

ولذلك فإنه حينما يكتب «إنه لم يعد كتاب الثوريين» - مشيراً إلى تأثير الكتاب على كرومويل والپيوريتان قبل قرن من الزمان. فإن رأيه صادق فقط على جانب واحد من الأطلنطي، وحتى في ذلك الحين يكون قد أصاب الموضوع مباشرة. وكما توضح ليندا كولي بشكل مقنع في كتابها الفذ Britons، فإن الديانة المرتكزة على الكتاب المقدس كانت في مركز الأيديولوجية البروتستانتية للهوية البريطانية والتي استخدمت لجعل اليعاقبة متأهبين على مدى الشطر الأكبر من القرن الثامن عشر. وكون وظيفتها ثورية أم مضادة للثورة يتوقف على الجانب الذي يسانده المرء. فقد كان اليعاقبة أتباع الملك المخلوع الستيوارتي والكاثوليكي چيمس الثاني، وذريته الكاثوليكية، والذي أطيح به على يد من أطلق عليهم مؤيدو وليم وماري اسم الثورة المجيدة. وقد استخدموا الكتاب المقدس لدعم ثورتهم، من ثم؛ ولكن ما إن تسلموا السلطة، حتى صار اليعاقبة بدورهم هم الثوريين، وحينئذ استخدم الكتاب المقدس ضدهم. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام الكتاب المقدس ضد الثورة المجيدة لم يكن يهم اليعاقبة كثيراً في حد ذاته، على الرغم من أنه لقي كثيراً من الاهتمام من رجال الكنيسة البروتستانت الذين بقوا على عهودهم التي أقسموا بها للملك الستيوارتي (من أسرة ستيوارت).

(*) ربما لو قال المؤلف «أول دولة وطنية مستقلة بنفسها في العالم الحديث لكان كلامه صحيحاً؛ ولكنها المركزية الأوروبية، فقد كانت هناك أمم ودول، قبل القرن الرابع عشر بآلاف السنين. (المترجم).

وكان الكتاب المقدس في الحقيقة هو كتاب الثوريين في المستعمرات الأمريكية عندما اتسع النزاع مع البريطانيين حتى وصل إلى نقطة اللاعودة. ولم يتضح هذا على نحو أفضل من اجتماع الكونجرس القارى الأول، والذى اجتمع في سبتمبر ١٧٧٤م عندما باتت الحرب مع انجلترا وشيكة. وعندما وصلت أنباء قصف المدفعية البريطانية لبوسطن إلى فيلا دلفيا، قام قس أسقفى أنجليكانى، هو المبجل يعقوب دوتشي، بقيادة المجلس في الصلاة. ولم يكن من طائفة البيوريتان. والواقع أن هذا كان أحد الأسباب في أن مندوب نيوانجلاند، سام آدامز، اقترحه هو لقيادة الصلاة، رمزاً للوحدة في وقت فريد في الأزمة. ولكن النص الذى اختار أن يقرأه، والكلمات التى قالها عقب ذلك، يمكن فهمها بوضوح على أنها تجنيد للكتاب المقدس في صف أمريكا في الصراع القادم. فهو يضع أمريكا مكان إسرائيل، ويطلب دفاع الرب عن إسرائيل في العصور القديمة متوسلاً بأنه سبب لكى يدافع عن أمريكا الآن. وبينما كان المندوبون يحنون رءوسهم، وكان المندوب الفيرجينى جورج واشنطن يشاهد راكعًا، وقد اختار دوتشي المزمور الخامس والثلاثين:

«خاصم يارب مخاصمى، قاتل مقاتلى. أمسك مجنا وترسا وانهض إلى معونتى. واشرع رمحًا وصد تلقاء مطاردى. قل لنفسى خلاصك أنا. ليخز وليخجل الذين يطلبون نفسى. ليرتد إلى الوراء ويخجل المتفكرون بإساءتى ليكونوا مثل العصافة قدام الريح وملاك الرب داحرهم. ليكن طريقهم ظلامًا وزلقًا وملاك الرب طاردهم...».

(هذه هي الإشارة إلى «الملائكة في الريح» التى أشار إليها جورج دبليو بوش في خطابه الافتتاحى الذى أوردنا فقرات منه فيما قبل). وينتهى المزمور بتذكير أن الذين اختارهم الرب لا ينالون مكافآتهم بالنصر على أعدائهم فقط وإنما بالرفاهية؛ ولكن عليهم في مقابل ذلك أن يبقوا مؤمنين:

«لا تسكت ياسيد، لا تبتعد عنى. استيقظ وانتبه إلى حكمى يا إلهى وسيدى إلى دعواى. اقض لى حسب عدلك يارب يا إلهى فلا يشمتوا بى. ولا يقولوا في قلوبهم هه شهوتنا. لا يقولوا قد ابتلعناه. ليخز وليخجل معا الفرحون بمصيبتى. ليلبس الخزى والخجل المتعظمون علىّ. ليهتف ويفرح المبتغون حقى وليقولوا دائمًا ليتعظم الرب المسرور بسلامة عبده. ولسانى يلهج بعدلك. اليوم كله بحمدك».

وبينما كان البيوريتان على ألفة بالفعل بأسلوب التبشير الذى يضع نيو إنجلاند مكان إسرائيل، فإن الأنجليكان الكثيرين الحاضرين لابد أنهم كانوا أكثر ألفة مع العادة التقليدية فى صلاة القداس (والتى تم تعديلها ومواءمتها من الممارسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى) فى رؤية كنيسة انجلترا - أو انجلترا فى جانبها الروحى - كما لو كانت تحل محل بنى إسرائيل. وقد حدث فى افتتاح الكونجرس القارى سنة ١٧٧٤م، وبتلك القراءة والصلاة التى أعقبتها، أن أمريكا قدمت نفسها بصورة رسمية فى مكان بنى إسرائيل، وبذلك تطرد انجلترا من هذا المكان وتدعم الزعم البيوريتانى فى هذا الشأن بحيث يضم المستعمرات الثلاث عشرة جميعًا. وقد كان ذلك الامتياز هو حجر الزاوية الذى شيد أمريكا على فهم محدد لأغراض الرب. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يعد الشعب المختار هم اليهود، ولا الكاثوليك، ولا الإنجليز، ولا سكان نيو إنجلاند فقط، ولكن كل الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين فصاعدا «الكينونة الأمريكية»، مثل أن تكون يهوديًا أو مسيحيًا، كانت تعنى أن تحوز مكانة دينية متمايزة بوصفك واحدًا من المختارين.

وفى القرنين التاليين بقى إحساس بأن الدخول فى المواطنة الأمريكية كان مثل بدء احتفال بلحظة دينية، تماما مثلما كان التعميد هو عملية بدء العضوية فى كنيسة مسيحية. فقد غيرت الشخصية الأساسية للفرد المهتم، والذى صار يعتبر منذ ذلك الحين - بشكل ثابت - فردًا خاصًا بطريقة لم تكن موجودة من قبل. والمتقدمون بطلب الحصول على المواطنة الأمريكية يأخذون مقررًا دراسيًا عما تتطلبه عضويتهم فى الجنسية الجديدة منهم، ويتم اختبارهم فيه، ثم يقسمون يمين المواطنة الأمريكية فى عملية قسم طقوسية بالولاء فى ظل العلم الأمريكى. وهى تفهم على أفضل شكل باعتبارها جزءًا من عملية مستمرة يتصور فيها الأمريكيون جماعتهم قائمة بفعل من أفعال الإرادة الإلهية، وهى عملية بدأت الآن تبدو كما لو كانت فعلاً من أفعال الدين. وفضلاً عن ذلك، فكل مهاجر بالغ يصير أمريكيًا يفعل ذلك بفعل إرادة، وهو أيضا فعل لإخضاع الإرادة. إذ لا يكون بوسعه بعد ذلك أن يكون هو نفس الشخص الذى كان من قبل: وإنما يختار بدلاً من ذلك أن يخضع لما يتضمنه «أن يكون أمريكيًا».

وقد يشك المرء فى أن كثيرين جدًا من الأمريكيين سوف يعترفون بأن صورة

أمريكا المثالية التى كتبها شاعر أمريكا والت هويتمان فى مقدمته لطبعة سنة ١٨٥٥م لمجموعته الشعرية «Leaves of Grass» ، هى صورة صحيحة. وما يحتاج غير الأمريكيين إلى أن يتذكروه أن هذا وصف لما يجب أن تكون عليه الأمور، وليس وصفًا لما هى عليه فعلاً، على الرغم من استخدام هويتمان للصوت المباشر. وبعبارة أخرى، فإنه يتخيل أمريكا فى الوجود.

«إن الولايات المتحدة نفسها - هى أساسًا - أعظم القصائد. . . وعبقرية الولايات المتحدة ليست أحسن أو أعظم فى رجالها التنفيذيين أو المشرعين، وليست فى سفرائها وكلياتها وكنائسها أو ردهاتها الفسيحة، ولا حتى فى صحفها ومخترعيها. . . ولكنها دائمًا أعظم فى عامة الناس. أساليبهم، كلامهم، ملابسهم، صداقاتهم - تجدد وصراحة نفسياتهم - والسعة البهيجة لحافلاتهم. . . وارتباطهم الحى بالحرية، والاعتراف العملى بالمواطن فى إحدى الولايات من جانب المواطنين فى كل الولايات الأخرى - وقسوة استيائهم إذا ما استثيروا - حبهم للاستطلاع وترحيبهم بالحداثة - اعتدادهم بأنفسهم والتعاطف المدهش - الشك فى أقل شىء - ورأيهم فى الأشخاص الذين لم يعرفوا أبدًا ماهو الشعور الذى يتولد فى حضور من هم أعلى - وطلاقة كلامهم - وفرحهم بالموسيقى، والشعور الأكيد بالرقة الرجولية والرشاقة الوطنية للروح. . . أخلاقهم الطيبة وكرمهم - والمغزى الرهيب لانتخاباتهم - وخلع الرئيس قبعته لتحيتهم وليس العكس - هذا أيضا شعر لا يُنشد».

ثمة تشابهات واختلافات مهمة هنا مع رسالة القديس بولس الشهيرة إلى أهل كورنثوس، وهى تتناقض إلى حد ما مع موافقة هويتمان على «قسوة استيائهم» و«الشك فى أقل شىء». تقول الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٣ : ٤ - ٨):

«المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لاتتفاخر ولا تنتفخ ولا تُقبّح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شىء. وتصدق كل شىء. وترجو كل شىء. وتصبر على كل شىء. المحبة لا تسقط أبدًا. وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهى والعلم فسيبطل».

وعلى الرغم من هذه الاختلافات فى المحصلة، فإن التشابه بين عملية بدء المواطنة الأمريكية والطقس المسيحى لبداية المعمودية (سر المعمودية) قوى. كما أن

له نقاطًا مشتركة مع العملية التى بها يتم اعتناق شخص ما اليهودية. وقد تؤكد هذا التشابه عن الطريقة المعتادة التى يتحدث بها الأمريكيون عامة وموظفو الحكومة خاصة عن رفاقهم الأمريكيين كما لو كانوا شعبًا يقف بمعزل عن بقية البشرية. وربما لا يكونون واعين بهذا، ولكن ليست هذه هى الكيفية التى تفكر بها أو تتحدث بها بقية جنسيات العالم عن أنفسهم. فالإنجليزى الذى يذهب للعيش فى فرنسا، حتى لو أخذ الجنسية الفرنسية وتحدث الفرنسية، لن يكون أبدًا أى شىء غير إنجليزى فى نظر نفسه وفى عيون جيرانه الفرنسيين. فهو لا يمكنه أن يريد لنفسه ألا يكون رجلاً إنجليزيًا. فهو يكون ما تخبره ذاكرته أنه هو. لا يمكن أن يؤخذ هذا ضده. كما أن رجلاً فرنسيًا يعيش فى انجلترا لن يتوقف عن كونه فرنسيًا.

هذه إجابة واحدة على أولئك الذين يجادلون بأنه، مهما كانت الطريقة التى ترى بها أمريكا نفسها فى أواخر القرن السابع عشر وفى القرن الثامن عشر، فإنها فقدت منذ وقت طويل إحساسها بنفسها ككيان دينى. فهل ما يزال الأمريكيون يفكرون فى أنفسهم باعتبار أن لهم مصيرا ليس من ابتكارهم تماما؟ وهل يفكر الأمريكيون فى بنى جلدتهم الأمريكيين باعتبارهم مختلفين ميتافيزيقيا ومعرفيًا عن بقية البشرية؟ إن الإجابة يجب أن تكون بنعم، وكل من هاتين العلامتين للتعريف تبدو كأنها قويت إلى حد كبير بفضل الحوادث الجارية، ومنذ الهجمات الإرهابية التى وقعت فى سبتمبر ٢٠٠١م. هذا الشعور بالمصير والإحساس بالخصوصية يذهب إلى تشكيل ما يسميه المعلقون الحديثون «الاستثنائية الأمريكية» (كما فى كتابين حديثين يحملان هذا الاسم، ألفهما سيمور مارتين ليبست وديبورا ل. مارسن). والاستثنائية الأمريكية ليست سوى فكرة الاختيار التى ترجع للقرن الثامن عشر (والانتخاب هى الكلمة الأقل شيوعًا، وهى فى هذا السياق لا تعنى صندوق الانتخابات) فى ثياب حديثة. وتسمية الاستثنائية الأمريكية ديانة، كما لو كانت أمريكا كنيسة يمكن أن تضم إلى مجلس الكنائس العالمى بصورة قانونية، هذه التسمية غلطة تصنيفية واضحة. وتسميتها ديانة بمعنى أن الإسلام ديانة يكون أقرب للحقيقة(*). وستارة الدخان الكبرى التى أخفيت وراءها هذه الرؤية الدينية

(*) يريد المؤلف هنا (القول بأن الإسلام ليست به هيئة كهنوتية وليست به كنيسة مثلما هو الحال فى المسيحية). المترجم.

الأساسية لأمريكا فى التعديل الأول، هى الفصل بين الكنيسة والدولة ، وهو ما سنتأمله بمزيد من التفاصيل فيما بعد .

ويأخذ البريطانيون الأمر إلى الطرف المعاكس؛ إذ إن المتقدمين الذين يستوفون مؤهلات الإقامة وغيرها من مؤهلات التطبيع، حسبما يقول المصطلح، يتلقون خطابًا مقتضبًا من وزارة الداخلية يخبرهم بأنهم يحق لهم الآن أن يتقدموا بطلب الحصول على جواز سفر. والأمريكيون الذين يحصلون على الجنسية البريطانية - عادة فى شكل «جنسية مزدوجة» لا تتطلب منهم التخلى عن حقوقهم الأمريكية - يصطدمون عالميا بالتناقض المتطرف. وفى الوقت نفسه فإن البريطانيين قد بدأوا يفكرون فى أنه، تمامًا مثل متطلبات الإقامة، فإن متطلبات اللغة ستكون أيضًا عاملاً يساعد على إقامة علاقات جماعية طيبة. بيد أنه ليس هناك اتجاه إلى تحويل التطبيع البريطانى إلى سر مقدس كنسى خفى مثلما هو الحال فى أمريكا.

ومن الغريب أن هذه الوضعية الروحية المنافسة لم تظهر أنها تزعج أيًا من حراس الاستقامة الدينية فى أمريكا، ولا الكاثوليك أو البروتستانت أو اليهود أو المسلمين. وربما أعمتهم النظرية الدستورية بالفصل بين الكنيسة والدولة، فلم يلاحظوا أن أمريكا نفسها قد صارت كيانًا شبه دينى. وأما فيما يتعلق بالتساؤل عما إذا كانت معاملة العلم الأمريكى باعتباره مقدسًا ترقى إلى مستوى عبادة الأصنام، فإن الأمريكيين سوف يعتبرون مجرد ذكر هذا التساؤل تدنيسًا للمقدسات.

وكما لو كان يؤكد هذا التمييز، واصل مستر دويتشى قراءته للمزمور ٣٥ مع الصلاة، وفى كلمات هذه الصلاة صارت كلمة الأمريكيين هى الشعب، وهو أمر له مغزاه. وبفعل التكريس هذا أخضع الكونجرس الوطن الذى كان على وشك أن ينشئه لإرادة الرب فى مقابل حمايته، وهى الصيغة الكلاسيكية لميثاق الرب فى الكتاب المقدس. وقال دويتشى فى صلاته:

«أيها الرب أبانا فى السماء ، ملك الملوك وسيد الأسياد عاليًا قويًا، ومن عرشك ترى كل سكان الأرض، يا من تحكم بقوة عظمى مطلقة على كل الممالك والإمبراطوريات والحكومات؛ انظر برحمتك، تتوسل إليك هذه الولايات الأمريكية، التى هربت إليك لتلوذ بك من عصا الظالم، وألقت بنفسها تحت

حمايتك الرحيمة، راغبة في أن تكون من الآن فصاعداً معتمدة عليك فقط؛ إليك لجأت لتشكو عدالة قضيتها، وهي تتطلع إليك الآن طلبا للمساندة والدعم الذي لا يستطيع أن يقدمهما سواك؛ خذها إذن يا أبانا الذي في السماء تحت رعايتك السامية؛ وامنحها الحكمة والمشورة. . . ولتكن حاضرا، بحكمتك يارب، ووجّه مشاورات هذا المجلس الشريف؛ وساعدهم على تقرير الأشياء على أفضل الأسس وأضمنها، بحيث ينتهي مشهد الدماء بسرعة، ويعود النظام والتوافق والسلام بصورة فعالة؛ وتسود الحقيقة والعدالة، والدين والتقوى وتزدهر بين شعبك».

وقد تأثرت مشاعر أعضاء الكونجرس بعمق. وفيما بعد كتب جون آدامز إلى زوجته: «لم أشهد أبداً تأثيراً أشد على السامعين. فقد بدا وكأن السماء قد رتبت قراءة ذلك المزمور في ذلك الصباح. . .».

ولم تكن مصادفة أن أولئك الأكثر وعيًا بين السلالة الصاعدة من الوطنيين الأمريكيين تاريخيًا، اعتبروا التمرد الذي قام به كرومويل ضد الملك سابقة للثورة التي يقومون بها؛ إذ إن المثال الذي ساروا على هديه لم يكن قائما على الفعل الذي قام به فقط، وإنما أيضا على ما تمثله أرضيته بالنسبة لهم. إذ إن البيوريتان يجادلون بأن لأي شعب مسيحي الحق في تحرير نفسه من اضطهاد الطاغية، وهي مسألة تجد لها جذوراً راسخة في الكتاب المقدس، ولاسيما في العهد القديم. وكان هذا موضوع آلاف الخطب الكنسية قبل الثورة في جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة. والواقع، أن الحرب الأهلية الإنجليزية والثورة المجيدة التي تلتها - واللتان أطاحتا بكل من الملك شارل الأول وابنه جيمس الثاني، الأول عن طريق الإعدام والثاني بواسطة النفي - صارتا تقريبا النموذج العالمي للثوريين الأوروبيين والأمريكيين. ومثلما تلاحظ بريدجت هيل في كتابها «The Republican Virago» وهي دراسة لها عن حياة كاترين ماكولي، المؤرخة المفضلة بين من كتبوا عن توماس جيفرسون:

«كان الثوريون الإنجليز فقط هم الذين يوضحون التشابهات - سواء كانت خاطئة أم لا - بين السياسات الحالية وسياسات فترة ما قبل الحرب الأهلية. وعندما تفاقمت الأزمة في العلاقات مع المستعمرات الأمريكية، كان كثير من أبناء الحرية يفسرون سياسة الحكومة تجاه المستعمرات في ضوء التجربة الإنجليزية في القرن السابع عشر. وفي تفسيرها للمراحل الباكرة للثورة الفرنسية في ضوء ما حدث في إنجلترا القرن

السابع عشر، لم تكن كاترين ماكولى هى الوحيدة التى فعلت ذلك؛ إذ إن كثيراً من الثوريين فى تسعينيات القرن الثامن عشر ممن اهتموا بشرعية خلع الملك، وربما إعدامه، عادوا بأنظارهم إلى انجلترا القرن السابع عشر. وكانت إدانة ولعنة بورك للثوريين الفرنسيين، مثل ردود كثيرة منها رد كاترين ماكولى، هذه الإدانة استفزت وأظهرت التفسيرات المختلفة لإنجازات الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م. فبالنسبة لأولئك المفكرين الثوريين ماذا كان أكثر طبيعية من فحص ثورة سابقة وأخذ الدروس منها. بينما المرء قد بعد عنها بما يكفى للقيام بتحليل عقلانى غير عاطفى نسبيًا؟ وبالنسبة للفرنسيين كما هو بالنسبة للأمريكيين الثوريين، كانت هناك تشابهات يمكن تخريجها ودروس يمكن تعلمها من حوادث القرن السابق فى انجلترا. وكانت المعرفة عن هذه الأحداث تعتمد على فهم التاريخ الإنجليزى فى القرن السابع عشر. وكتاب التاريخ لكاترين ماكولى لم يلعب دوراً صغيراً فى تقديم الأساس لمثل هذا الفهم[٩].

وبينما يتضح أن سابقة الحرب الأهلية الإنجليزية ساعدت فى حالة الوطنيين الأمريكيين، فإنهم كانوا أكثر تجريبية فيما يتعلق بالعلاقة مع حوادث سنة ١٦٨٨م. إذ كان النظام الذى أقيم فى مكان چيمس الثانى هو الذى أدى منطقيًا وبسرعة إلى ارتقاء آل هانوفر العرش، وأسبغ الشرعية على چورج الثالث. وكان الثوريون الأمريكيون أشد اهتمامًا بالمناقشات التى قوضت شرعية الملك چورج منهم بأية حجج ساندته.

وهناك إغراء يشد المرء إلى التساؤل عما إذا كان كريستوفر هيل، المؤرخ الإنجليزى المتميز والمتخصص فى فترة كرومويل، يفهم تأثير الكتاب المقدس على السياسات الثورية فى القرن الثامن عشر فى كتابه بحيث يقدم رؤية مضادة المغزى الكامن فى كتاب المؤرخة الإنجليزية الممتازة بريدجت هيل. إنها فكرة بهيجة. فإنهما على أية حال زوج و زوجته، وكل منهما يدين للآخر بكرمه فى المساعدة بمراجعة كتبه. وسواء من خلال شهامة الزوج أم لا، فإن الزوجة تكسب الجدل. فإذا كان الكتاب المقدس هو الحاسم فى تشكيل ثورة القرن السابع عشر، وكانت ثورة القرن السابع عشر بدورها عامل الحسم فى تكوين الثورة فى القرن الثامن عشر، إذن فالكتاب المقدس كان حاسمًا فى ثورة القرن الثامن عشر أيضا. وربما لم يعد هو كتاب الثوار فى حالة الثورة الفرنسية. ولكنه كان كذلك فى أمريكا.

وتقول بريدچت هيل: إن ماكولى كان معجبًا بالمبشّر الأمريكى چوناثان إدواردز الذى كانت مواعظه الشهيرة عن نار الجحيم فى قلب الصحوة الأنجليكانية العظمى فى منتصف القرن الثامن عشر. وكما سنرى عندما ندرس أحدهما بدقة فيما يلى من هذا الفصل، فقد انغمس فى رؤية للعالم مستمدة من الكتاب المقدس ومقتنعة بالدور المخصوص لأمريكا فى خطة الرب للخلاص. وتقول بريد چت هيل: «خلف أفكار إدواردز كانت هناك أيضا نزعة ألفية، واعتقاد بأن الصحوة ألقت بظلالها على زمن وجب فيه على كل الأمم والبلاد أن تكون عامرة بالنور والمعرفة». وهى تقرر أيضا أن المؤرخين يرون بشكل متزايد أن روحا جديدة من الفردية المتمردة عند إدواردز «تلعب دوراً مركزيًا فى تجهيز أمريكا للثورة». ولكن مثلما سعت أيضا هيل للتوضيح، كانت كاترين ماكولى نفسها مؤثرًا قويًا للغاية على الفكر الثورى. كما كانت نظرتها أيضا متأثرة بالكتاب المقدس بقوة، بل إنها تميل إلى شكل معدل من الكالڤينية على الرغم من أنها لم تكن صحيحة تمامًا بمصطلحات المذهب الأنجليكانى فى القرن الثامن عشر.

والنظرة المستمدة من الكتاب المقدس لتاريخ العالم هى بالضرورة الإيمان بالعناية الإلهية. فقد كانت مصائر بنى إسرائيل القدامى تتشكل دائمًا بيد الرب الخفية، سواء بالخير أو بالشر. ووجد كثيرون فى الرابطة التى تجمع بين العهد القديم والعهد الجديد مبرراً للاعتقاد بأن عمل الرب كان يؤدى إلى حادث نهائى، ألفية دينية (تختلف نوعًا ما عن النوع الحرفى الذى تم الاحتفال به على مستوى العالم سنة ٢٠٠٠م). وهذه الفكرة أيضا كان لها تأثير قوى فى أمريكا. وكثير من الآباء المؤسسين قرأوا كتابات كاترين ماكولى وقدروها. فقد امتدح بنيامين فرانكلين كتاب التاريخ الذى ألفته؛ كما أن چيفرسون وضعه كمرجع مفضل، واشترى كل المجلدات الثمانى، ووضعها فى مكتبة جامعة ڤيرچينيا وكان چون آدامز يراه بمزيد من الإعجاب. وكانت هى المؤرخة التى كان يعرفها چورچ واشنطن أحسن من غيرها. وكذلك كان چوسياه كوينسى وبنيامين روسن معتادين على مؤلفاتها.

وكل هذا يوضح أهمية آرائها الخاصة فى العناية الإلهية، وهى آراء لا بد أنها كانت مؤثرة للغاية فى هذه الأوساط. والواقع، أنه فى السعى إلى توضيح أصول طريقة التفكير الأمريكية كلها، تستحق كاترين ماكولى جدارة أكثر كثيراً مما حصلت

عليه. ولا غرابة في أن عميد المؤرخين الأمريكيين في تلك الفترة برنارد بايلين، لا يجعل لها أهمية أكثر من ذلك. ففي كتابه « The Idological Origins of The American Revolution » يقول فقط إن المؤرخة الجمهورية كاترين ماكولى، الذي سُمي كتابها الذي عنوانه «History of England» عملا خياليا لامتداح المبادئ الجمهورية تحت عنوان تاريخ انجلترا، كانت أيضا مفكرًا مهمًا في هذا الجيل من المستعمرين... » ولكنها ليست في أهمية بعض الآخرين الذين أورد أسماءهم. أما ما كان يحول دون الإعجاب بماكولى بين المؤرخين المعاصرين. فكان بلا شك هو تجميعها المريب لأساطير ما قبل الغزو النورماني وميلها إلى توجيه اللوم إلى النورمان في كل شيء، الذين تزعم أنهم قد أضاعوا الفردوس الأنجلوسكسوني. كانت تلك نظرية غير سليمة، على الرغم من أن توماس جيفرسون وآخرين تقبلوها. ونحن هنا لا نهتم بدقتها التاريخية على أية حال، وإنما تأثيرها خصوصًا على الأمريكيين المعاصرين لها. إذ إن آراءها عن العناية الإلهية والألفية القادمة تستحق بالتالي أن تكون ماثلة أمام الممثلين الرئيسيين في هذه الدراما كما حدث فعلاً. فهل هي آراء تنتسب للكتاب المقدس؟ لابد أنها قالت ذلك بالتأكيد. وتصفها بريدجيت هيل كما يلي:

«رأت كاترين ماكولى أحداث الحياة البشرية، باعتبارها ليست سوى سلسلة من أفعال العناية الإلهية الخيّرة، ولكن حينما كانت ترى و«**هي تعلن نفسها لصالح الكمال والسعادة المستقبلية للعالم الأخلاقي**» فلا عجب إذا انتقل الناس بواسطة «**الأمل والعرفان**». وكتبت في سنة ١٧٩٠م أن هذا كان هو ما فشل بورك في أن يفهمه في ردود فعل الناس تجاه الثورة الفرنسية. وتساءلت عما إذا كان قد سمع عن الألفية سوى تلك الألفية الخيالية التي يفترض وجودها في مملكة القديسين. والرأي القائل بأن عقيدة ما بعد الألفية كانت مركزية في معتقدات ماكولى الدينية هو رأي صائب... فقد صورت كاترين ماكولى طبيعة الألفية على أنها فترة من الزمن ينكسر فيها الصولجان الحديدي للهيمنة الاستبدادية، حينما يسود الحق على الأرض كلها، ويحل نظام سليم للمساواة في توجه الإنسان. كان كل التحسن في الناس والمجتمع يتجه صوب مثل هذه الألفية. كانت هذه خطة الرب للعالم، ولكن بالتعاون مع الناس يمكن للقوة أن تؤثر في مجرى التاريخ».

وتهمة أن بروك كان يؤمن فقط «بألفية خيالية» توجد فى مملكة القديسين ربما كانت إشارة إلى تعاطف بروك المزعوم مع الكاثوليك الرومان، وهو تلميح مهلك ومدمر. وبدا وكأنها تقول إن البروتستانت الطيبين كانوا يعتقدون فى الألفية باعتبارها إمكانية قادمة، احتمال حقًا، فى العالم الحقيقى. وكسر الصولجان الحديدى للهيمنة الاستبدادية يمكن أيضا أن يكون قد سمع به مستمعوها المعاصرون باعتباره معنى، فى مصطلحات مستمدة من سفر الرؤيا، هو القضاء النهائى على المسيح الدجال (وهو البابا بعبارة أخرى).

وفى خلطة ماكولى التى تجمع بين غدم التملك والمذهب الجمهورى، والنزعة الألفية، من الصعب أن نتصور عبارات أكثر صراحة عما يكمن وراء المصير الواضح والحلم الأمريكى، ففى البداية كان المصير الواضح يحمل لونا مميزا من العداء للكاثوليكية. إذ كان أحد مهامه الأولى هو تحرير مناطق الجنوب فى أمريكا الشمالية التى تعيش تحت النير الإسپانى، أى الكاثوليكى. ولم تكن ماكولى أبدًا تحظى بشعبية فى انجلترا، حيث كانت متورطة لصالح چون ويليكس الذى كان أبرز الثوار المتشددين الإنجليز فى زمانه. ولم يكن يعجب كل الناس ولم تكن هى أيضا، على الرغم من أن المستعمرين الأمريكيين صنعوا منه بطلاً.

ولكن دورها يؤسس هذه الأيديولوچية الدينية، إذ كان اللجوء إلى الكتاب المقدس سعيًا وراء الدعم العام، ما يزال قوة لها وزنها فى الشئون السياسية فى القرن الثامن عشر. والواقع أن تأثير الكتاب المقدس فى الطبعة الإنجليزية كان غاية فى العمق منذ القرن السادس عشر فصاعدًا، ومن غير المصدق أن نفترض أن تأثيره كان يمكن إيقافه بطريقة ما فى القرون التالية. وبنهاية القرن السادس عشر يكتب كريستوفر هيل عن الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس:

«كان بحوزة كل العلمانيين المتعلمين، وحاز المبشرون البروتستانت المتشددون نقطة فى محاولة توسيع نطاق المعرفة به فى كل مستويات المجتمع. وبحلول القرن السابع عشر كان الكتاب المقدس مقبولاً بوصفه مركز كل مجالات الحياة الفكرية؛ إذ لم يكن مجرد كتاب دينى بالمعنى الحديث الضيق لكلمة دينى. فقد كانت الكنيسة والدولة فى انجلترا فى عهد أسرة تيودور شيئًا واحدًا؛ وكان الكتاب المقدس، أو

كان ينبغي أن يكون أساس كل جوانب الثقافة الإنجليزية. وعلى هذا المبدأ وافق معظم البروتستانت. وإذا لم نستوعب هذا فسوف نسقط في هوة فوضوية بالحديث عن عصر أكثر تدينا من عصرنا. وفي معان كثيرة كان ذلك عصراً أقل تديناً من عصرنا».

وبعض التدريب على النقاط البارزة في أساطير العهد القديم سيكون ضرورياً إذا ما كنا نريد أن نفهم تأثيرها الكامل. فهي لا تقرأ ببساطة لتاريخها. إذ كانت نبوءة أيضا. وتصف حكايات العهد القديم نماذج من السلوك الإنساني تكرر منذ ذلك الحين مرات ومرات. ومنذ ذلك الحين وهي تقدم متشابهات من الكتاب المقدس يمكن أن تضيء الحالات المعاصرة. فهي تصف تعاملات الرب مع الأفراد القدماء والمجتمعات القديمة حينما تضل عن الطريق الصحيح. وهم ما يزالون في ضلالهم اليوم، وسيكون الرب متسقًا في استجاباته. ومنذ ذلك الحين يمكن استخدام قصص الكتاب المقدس للتنبؤ بالعواقب. وهي ليست مثل مسرحيات شكسبير مجرد توضيح للطبيعة البشرية والمواقف الإنسانية. وأن نقول عن البعض إنهم مثل هاملت فإننا نصفهم بالتردد وتمزق الوعي. ولكن مجرد التورية لا يخبرهم كيف يحلون المصاعب التي تواجههم، وهذه هي الطريقة البروتستانتية لقراءة الكتاب المقدس على أية حال، فإن وصف أحد بأنه مثل موسى أو يوشع أو سليمان، يعني الإشارة إلى المسار الذي سلكه من قبل مع دعوة ضمنية إلى السير على هذا النهج مرة أخرى. والمصطلح الفني لهذا الاستخدام المخصوص للتورية أوالمجاز الوارد في الكتاب المقدس هو «التنميط». إذ إن موسى في هذا الاصطلاح نمط وجد قبل ظهور المسيح. ومن الممكن أيضا لأفراد آخرين أن يكونوا نمطا، بهذا المعنى، بالعلاقة مع موسى، وليس هذا بيان كيفية استخدام كلمة نمط بشكل شائع، ولكي نتجنب الارتباك فإن هذا الاستخدام المخصوص لكلمة نمط سوف يتم تجنبه بقدر الإمكان. وهو معرف في قاموس أوكسفورد الإنجليزي بأنه شخص أو شيء أو حادث في تاريخ العهد القديم، يسبق في تجسيد شخص ما أو شيء ما أوحى به في التجليات الجديدة. وكلمة التنبؤ تعني أمراً أشمل من الرمز أو التمثيل.

وتكشف حكايات العهد القديم ببطء عن علاقة واحدة مستمرة من بدايتها: علاقة إسرائيل بربها. وبينما تتكشف يصبح من الواضح تدريجيا أنها ليست فقط

مفتاح العلاقة بين الرب واليهود، وإنما هي أيضا مفتاح علاقة الرب بالبشرية كلها على مدى الزمان. والرب اليهودي رب عالمي. وبهذا الفهم، يطور الرب علاقته بالبشرية من خلال ما يسمى المواثيق، وهي موافقات رزينة أو تعاقدات لها خاصية مقدسة. وأكثر المواثيق أهمية هو الذي يكافئ بني إسرائيل بوضعهم كشعب الله المختار. وكثير من القصص التي تروى تصف نفاذ شروط ذلك الميثاق، لاسيما ما يحدث عندما يتم الإخلال بذلك الميثاق. وفي الفكر اليهودي، في كل من العصور القديمة والعصور الحديثة، لا يمكن نقض الميثاق. فالرب دائمًا يصدق وعوده، حتى ولو لم يكن اليهود مخلصين في وعودهم. وفي حالة عدم كونهم مخلصين، تتدخل العناية الإلهية لكي تفرض الفقر والطغيان والهزيمة في الحرب، والأسر بل والنفي.

هذه الضربات التصحيحية المختلفة من يد الرب تنزل بالمعاناة دومًا فهم ممن نزلت بهم، حتى يظهر نبي يشير إلى ما كان من خطأ وما يجب على الشعب أن يفعلوه حتى يحوزوا رضاء الرب مرة أخرى. إذ يجب عليهم باستمرار أن يعودوا إلى ممارسة القانون وفي مقدمته الوصايا العشر. ومن بين كل الوصايا، التي يستجلب انتهاكها أكبر نقمة مقدسة ليس السرقة أو القتل، وإنما عبادة الأصنام، والرب الذي يصوره العهد القديم رب غيور. وهناك سبب جيد لهذا. إذ إن فكرة الرب الغيور تخدم كنوع من الحماية لمثال التوحيد: أن هناك ربًا واحدًا، وحده. وإذا تقبل المرء التتابع الزمني للكتاب المقدس الذي يضع النبي إبراهيم قبل الفرعون إخناتون، فإن اليهود إذن أول شعب في التاريخ اعتنق مثل هذه الفكرة(*). والشعوب القديمة تسلم بأن العالم كان مليئًا بالآلهة. والارتداد من التوحيد إلى تعدد الآلهة كان أمرًا سهلاً. والطريق إلى الاتجاه الآخر كان صعبًا وعرًا.

هذا هو المعنى الحقيقي للاختيار. فهو لا يعني بالضرورة أن الشعب المختار تحت حماية خاصة من الرب ورعايته المخصوصة؛ لأن هذا يمكن أن يعني أيضا أن له طريقة خاصة في تجاهلهم وعقابهم. وفي بعض الأوقات، حسبما اقترح بعض

(*) اليهود هم اتباع موسى عليه السلام. وكتابهم هو أسفار موسى الخمس (التوراة) ثم ما تلاها من أسفار العهد القديم من بعد موسى. وموسى من أحفاد يعقوب أو إسرائيل عليه السلام، الذي هو حفيد نبي الله إبراهيم عليه السلام، فكلام المؤلف تنقصه الدقة، ولا أحد يستطيع أن يجزم بمن هم أول الموحدين وأين عاشوا. المترجم.

الأحبار اليهود، ينسحب الرب حينما تكون حماية العناية الإلهية، لأى سبب كان، متوقفة. وحتى فى ذلك الحين يعنى الاختيار أنهم تحت عنايته الخاصة. وكان هناك فكر يهودى، مثلا أن انسحاب الرب وتخليه عن حماية الشعب المختار خلال الهولوكوست النازى، كان هو الوسيلة للوصول إلى غاية توطين اليهود فى إسرائيل. وعلى الرغم من أن الفكرة قد تكون غير مريحة - سوى بالنسبة لأكثر الصهاينة المتدينين تشدداً - فإنها تلقى قبولاً لدى المفكرين اليهود أكثر من اقتراح أن الهولوكوست كان نوعًا من العقاب على ارتكاب الخطأ. وربما يلاحظ أنه على الرغم من أن الرب هو واضع القانون الأخلاقى، فإنه هو نفسه غير مقيد به.

ولكن من المؤكد أن اليهود مقيدون به. فالاختيار يعنى أنهم تحت واجب خاص بأن يراقبوا خطواتهم؛ فعليهم التزامات إضافية؛ ويمكنهم أن يتوقعوا عقابًا إضافيًا إذا ما تعدوا بالعدوان. والغرض من اختيارهم، بعيداً تماما عن أن يكون ذلك بسبب امتيازهم، هو ببساطة لكى يشيروا إلى خير الرب ووحدانيته قبل أى شىء. إنهم مختارون لكى يكونوا شهوداً مخصوصين على التوحيد. وهذا هو السبب فى أن عبادة الأصنام - أى عبادة آلهة زائفة، ورفض عبادة الإله الواحد - هى أسوأ أنواع الخيانة.

ويعلقّ الرباى لويس چاكوبس فى موسوعته «The Jewish Religion» بأن بعض الباحثين اليهود قد اعتبروا أن اختيار اليهود علامة توضح أن اليهود لهم شرارة أو عبقرية مقدسة تجاه الدين مقارنة بالآخرين. والإحساس بالاختيار ربما يكون قد برز فى زمن كان فيه بنو إسرائيل وحدهم الموحدين، ويحيط بهم وثنيون يعبدون آلهة متعددة. فقد اختارهم الرب ليؤمنوا به. ويضيف:

«يفخر اليهودى العادى باقتناعه بأنه ينتمى إلى شعب له دور خاص يلعبه فى عالم الرب. ونادراً ما كان مثل هذا الفخر يتعدى حدود التباهى غير الضار من جانب معظم الناس الذين يمارسونه بالنظر إلى المجموعة المعينة التى ينتمون إليها، أمتهم دينهم، بلادهم، أو حتى النادى أو فريق كرة القدم الذى يشجعونه. وبالفعل يؤكد كل المدرسين اليهود أن اختيار الرب لليهود ليس من أجل الامتياز وإنما من

أجل الخدمة. وفى أفضل الفكر اليهودى، أن اختيار اليهود تم بواسطة الرب ومن أجل الرب ولتحقيق خطته للبشرية جمعاء».

وبطريقة مشابهة، نُقل عن الرباى الرئيسى ليهود بريطانيا العظمى السابق اللورد دكتور عمانويل جاكوبوفيتس قوله فى كتاب Lord Jakobovits in Conversation: «هنا تبرير فقط لدرجة امتلاكنا القيم المبنية على أساس الديانة اليهودية، القيم التى تسهم بشىء فى العالم بأسره. لوجودنا المستمر... إن مهمة شعب إسرائيل هى أن يعملوا كعلامة إرشاد للعالم كله. وربما نكون قد تعبنا من تحقيق هذه الرؤية، ولكن بدونها، ما هو الغرض من استمرارنا يهود؟».

لقد شعر أن غير اليهود قد أخذوا يرون مغزى اليهودية فى هذه المصطلحات أيضا، وربما هى نظرة تفاؤلية عن الكيفية التى يرى بها بقية العالم إسرائيل الحديثة - التى كان تأسيسها، من وجهة نظره، تم بفعل العناية الإلهية(*).

وتقليديًا، فإن الاختلاف الأساسى بين الفهم المسيحى والفهم اليهودى للميثاق يتعلق بالمسيح. وحسبما يعتقد المسيحيون، فإما يكون اليهود قد نقضوا الميثاق بشكل نهائى ولا رجعة فيه؛ لأنهم لم يعترفوا بمسيحهم عندما جاء، وهى النقطة التى عندها نفض الرب يده منهم؛ أو أن اليهود ظلوا مستمسكين بالميثاق برفضهم الإغراء بتركه استجابة لمزاعم زائفة بمسيحانية يسوع. وفى الحالة الأولى افترض المسيحيون أن الميثاق قد استمر أو أعيد تجديده، ولكن منذ ذلك الحين فصاعدا كان الميثاق معهم وليس مع اليهود الذين بالتالى لم يعودوا «مختارين». ولذلك فإن عنوانى الجزئين الكبيرين للكتاب المقدس المسيحى، أى العهد القديم والعهد الجديد، ينبغى تسميتهما بشكل أكثر منطقية الميثاق القديم والميثاق الجديد.

(*) ما سبق فى الاقتباسين السابقين، وغيرهما، هو ما يقوله اليهود عن أنفسهم بطبيعة الحال. وهو كلام لا يقنع أحدًا سواهم وطائفة من المسيحيين، خاصة البروتستانت، وخاصة الصهاينة من بينهم وأتباع اليمين المسيحى. أما فيما يتعلق بإسرائيل الحديثة فإن ممارساتها العنصرية والوحشية، وجرائمها المتكررة ضد البشر الآخرين من العرب مسلمين ومسيحيين، وعدم التزامها بالقوانين الدولية، والقرارات العديدة التى بنيت على أساسها، فضلاً عن عدم التزامها بأية قواعد أخلاقية - كل هذا لا يبرر الزعم بأن خلقها كان بفعل العناية الإلهية، وربما يكون الأصح القول بأن خلق إسرائيل الجديدة، واستمرارها حتى الآن، إنما هو فعل من أفعال العناية الإمبريالية والغفلة والضعف العربى - المترجم.

وقد أظهر الرباى نورمان سولومون من جامعة أوكسفورد، فى ورقة غير منشورة ألقيت فى مؤتمر يهودى - مسيحى بالولايات المتحدة سنة ٢٠٠١م، التشابهات والتناقضات بين التعاليم اليهودية والتعاليم المسيحية التى تتضمنها النظريات المتنافسة لجوشانان نابشا، وهو مدرس يهودى بارز فى فلسطين القرن الثالث، وأوريجن أبو الكنيسة الذى كان يعيش فى قيصرية بفلسطين:

«علق كلاهما على نشيد الأنشاد الوارد فى الكتاب المقدس، وكلاهما فسره على أنه كناية ومجاز. وبالنسبة لأوريجن، فهذا النشيد يقف للرب أو المسيح وفخره، أى الكنيسة؛ أما بالنسبة لجوشانان فهو كناية عن الحب بين الرب وشعبه إسرائيل. وقد حلّل روڤين كيملمان (١٩٨٠) تعليقاتهما ووجد خمسة فروق متسقة بينهما، يتعلق بخمسة مسائل كبرى هى التى قسمت المسيحيين واليهود:

١ - يكتب أوريجن عن ميثاق توسط فيه موسى بين الرب وبنى إسرائيل؛ وهذا اتصال غير مباشر بين الاثنين، وهو ما يتناقض مع الحضور المباشر للمسيح. ومن ناحية أخرى، يشير جوشانان إلى الميثاق على أن موسى تفاوض بشأنه، ومنذ ذلك الحين تلقاه بنو إسرائيل مباشرة من الرب مثل «ليقبلنى بقبلات فمه»، (نشيد الأنشاد، ١ : ٢) ويؤكد جوشانان الاختيار والحب بين الرب وإسرائيل، على حين يضع أوريجن مسافة بينهما.

٢ - وفقا لأوريجن، فإن الكتاب العبرى كان مكتملاً، أو «تم تجاوزه» بالعهد الجديد. ووفقا لجوشانان، فإن الكتاب العبرى يكتمل بالتوراة الشفوية.

٣ - بالنسبة لأوريجن، المسيح هو الشخص المركزى، يحل محل إبراهيم ويكمل محو خطيئة آدم، . أما بالنسبة لجوشانان فإن إبراهيم يبقى فى مكانه والتوراة هى «الترياق» الذى يعالج الخطيئة.

٤ - بالنسبة لأوريجن القدس رمز، «مدينة سماوية». وبالنسبة لجوشانان القدس الأرضية تحتفظ بمكانتها كحلقة وصل بين السماء والأرض، المكان الذى سوف يتجلى فيه حضور الرب مرة أخرى.

٥ - يرى أوريجن أن معاناة بنى إسرائيل برهان على أن الرب تبرأ منهم؛ بينما يأخذ جوشانان المعاناة على أنها عقاب محب وتأديب من أب غفور.

ومنذ ذلك الحين فإن العهد القديم فى التراث المسيحى يبشر، ويتنبأ بالعهد الجديد. وإذا ما نُسخ الميثاق القديم، فإن الميثاق الجديد يحل محله ويتجاوزه.

وقد أصبح هذا يعرف فى العصور الحديثة بنظرية «الإلغاء» (أو نظرية الإحلال) وكانت محل انتباه شديد للغاية؛ لأن الباحثين المسيحيين واليهود عملوا سويًا لكى يقفوا على أسباب تاريخ هذا الشقاق الذى استمر ألفى سنة.

والحل الذى يطرحه الرباى سولومون (فى الخطاب الذى أشرنا إليه بالفعل) كان يدعو كلاً من المسيحيين واليهود إلى اعتبار الحديث عن «الميثاق» مجازًا شعريًا، وليس باعتباره حقيقة موضوعية راسخة. فإذا كان «موضوعا»، فإن مجموعة واحدة فقط هى التى يمكنها امتلاكه، وسيكون عليهم أن يتشاجروا بسبب ملكيته. أما إذا كان مجازًا فإنه ببساطة يصف العلاقة بطريقة توضيحية: فهو لايفرض أية التزامات، ولا يعد بأى شىء فى المقابل. وتتمثل الصعوبة فى أنه بينما يمكن لهذا أن يخفف من حدة الزعم المسيحى بوجود ميثاق مع الرب إلى درجة لاتجعله يهدد الزعم اليهودى، فإنه أيضا يخفف الزعم اليهودى إلى الدرجة التى يبدو فيها أن الهوية اليهودية قد تم تقويضها. وإذا كان بوسع الجميع أن يختاروا تصور أنفسهم فى علاقة تعاقدية مع الرب، فإن المفهوم يصبح فارغًا من معناه.

وما أضفى صفة العجالة على هذه المهمة، فى أعقاب الهولوكوست النازى، هى الحاجة إلى فهم بزوغ معاداة السامية لكى يُتجنب حدوثها مرة أخرى. وعلى الرغم من أن معاداة السامية المسيحية غير عنصرية من الناحية النظرية، وربما يكون من الأصح فنيًا تسميتها معاداة اليهودية، فإن ثمة عاملاً مهمًا كان موجودًا على الدوام. فمن الصعب فصل العرق عن الدين فى هذه الحالة. وربما يكون شرح ذلك هو أن اليهود لا يتحدثون عن أنفسهم باعتبارهم مجرد ديانة، ولكن باعتبارهم أتباع دين يستمر خطبهم عدة أجيال من خلال الوراثة بدرجة كبيرة. واليهودى هو أى شخص ولدته أم يهودية. ويتلاشى هذا بسرعة فى المفهوم الحديث عن العرق، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة كان يناقضه الافتراض المسيحى بأن أى يهودى يتم تعميده يصير مسيحيًا. وعند هذه النقطة، بقدر ما يخص الكنيسة، لم يعد يعتبر يهوديًا. وثمة رؤية مسيحية معاصرة ستكون أقل فئوية. ففى العصور الحديثة كان

كل من الأسقف الأنجليكاني لبرمنجهام هوج مونتيفيوري، وكبير أساقفة باريس الكاثوليكي الكاردنيال چان ـ ماري لوستيچيه ممن تحولوا من اليهودية إلى المسيحية، وكلاهما وصفا أنفسهما دوتما لبس بأنهما يهوديان. وسيكون حقًا القول بأن الاستجابة اليهودية لهذا كانت متحفظة قليلاً. فعلى الرغم من أن اللياقة تمنعهما من الجهر بالقول بأن اليهودي الذي يصبح مسيحيًا ما يزال ينظر إليه باعتباره خائنا من نوع ما. [وماذا عن رد الفعل المسيحي إزاء هذا الموقف الغريب؟].

لقد سممت النزعة المسيحية لمعاداة السامية ومعاداة اليهودية أرض أوروبا على مدى مئات السنين، مما أدى في النهاية إلى ظهور النازية في القرن العشرين. ويتفق الباحثون المسيحيون الآن على أن موقف الديانة المسيحية الذي يحتقر اليهود يرجع إلى أصول الديانة المسيحية، حينما ظهرت نظرية الإلغاء للمرة الأولى. وهم لا يتفقون على ما إذا كان هذا يعني أنه ينبغي التخلي عن النظرية (التي تقول إن العهد مع المسيحيين قد ألغى العهد مع اليهود)، أو ما الذي يمكن عمله بشأنها. وهكذا فإن الكاردنيال والتر كاسبر، رئيس بعثة الڤاتيكان للعلاقات الدينية مع اليهود، قال في الاجتماع الذي خاطبه سولومون (الذي أوردناه سابقا) أن عقيدة الميثاق كانت «الموضوع المركزي في الحوار اليهودي ـ المسيحي». وقال إن العلاقة بين الميثاق القديم لليهودية والميثاق الجديد مع المسيحية «معقد جدا بحيث لا يمكن النزول به إلى معادلة مختصرة».

والباحثون اليهود مشتبكون في الموضوع بطريقة مشابهة. فهم لا يتفقون على ما إذا كانت نظرية الإلغاء سوف تؤدي بالضرورة إلى معاداة السامية، أو عما إذا كان من الممكن الإبقاء على النظرية بينما تظل معاملة اليهود بلطف ويستمر احترام معتقداتهم الدينية. وعلى أية حال، فإنه على أقل تقدير تحتاج نظرية الإلغاء الفجة إلى تعديل.

إنها كلمة جديدة في لغة اللاهوت والعلاقات بين الديانات. وفي مؤتمر مشترك نظمه الڤاتيكان والمعابد اليهودية الإصلاحية في بريطانيا العظمى سنة ٢٠٠٠م، لم يستطع الباحثون الواعون حتى أن يتفقوا على كيفية هجائها.

وأشد تبرؤ مسيحي وضوحًا ودرامية وتأثيراً من نظرية الإلغاء. يؤكد أن اليهود ما يزالون مختارين، حتى ولو كانت الكنيسة محقة في وصف نفسها بأنها مختارة أيضا. حدث خلال زيارة البابا حنا بول الثاني إلى إسرائيل سنة ٢٠٠٠م. فقد ذهب إلى الحائط الغربي في القدس، الجزء الوحيد الباقي من معبد سليمان(*)، وصلى كما ينبغي ليهودي تقي أن يصلي، في أكثر الأماكن قدسية بالنسبة لليهودية. وجريًا على عادة اليهود الذين يصلون عند الحائط الغربي، وضع ورقة تحمل صلواته الشخصية في فتحة بالحائط. ويمكن القول إنه كان يستعير أحد خطوط اتصالاتهم مع الرب. وكان هذا توضيحًا لا لبس فيه أنه يؤمن أن القنوات التقليدية للرحمة والصلوات بين الرب واليهود ما تزال على فاعليتها. بل إن هذا تم توضيحه أكثر حينما نُشر نص صلواته في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان النص مكتوبًا بالإنجليزية وعلى خطاب في أعلاه شعار الكرسي المقدس (البابوي)؛ وفي أسفله كان توقيعه، باللاتينية ونصّه: Johannes Paulus والتاريخ، وكانت تلك أفضل صلاة يمكن أن ينطق بها في مثل هذه المناسبة، كانت توسلاً بغفران الخطايا الكبرى التي ارتكبها المسيحيون في حق اليهود، وقال النص:

«يارب آبائنا، لقد اخترت إبراهيم وذريته لجلب اسمك إلى الأمم. نحن حزانى بعمق بسبب سلوك أولئك الذين تسببوا على مجرى التاريخ في معاناة أبنائك ونسألك الغفران ونرغب في أن نلزم أنفسنا بالأخوة الأصلية بشعب العهد».

(*) هذه أكذوبة صهيونية وواحدة من الأساطير التي تم الترويج لها في غمرة العدوان الصهيوني على فلسطين، وهي إحدى الأساطير المؤسسة لإسرائيل. إذ إن البحوث الأثرية المحمومة طوال القرن الماضي لم تتمكن من إثبات وجود معبد سليمان. بالإضافة لأن العهد القديم، أي المرجع المعتمد لليهود والمسيحيين يتهم سليمان مراراً وتكراراً بالكفر وعبادة الأوثان. ومن ناحية أخرى فإن الحائط الغربي يرتبط بقصة الإسراء الواردة في القرآن الكريم. وحقيقة الحائط الغربي (حائط المبكى) ترجع تاريخيًا إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني؛ فقد كان اليهود يؤدون صلواتهم في عدة أماكن، وكان ذلك يسبب مضايقات للمسلمين؛ فأمر السلطان مهندسه سنان باشا أن يبني لليهود سورا في الناحية الغربية ليؤدوا صلواتهم فيه. ولم تظهر فكرة حائط المبكى باعتباره من أطلال معبد سليمان سوى في عشرينات القرن العشرين عندما اخترعت الحركة الصهيونية هذه القضية، وثارت بسببها انتفاضة البراق الفلسطينية ضد سلطات الاحتلال الإنجليزي التي استعانت بجنودها في قاعدة قناة السويس لإخماد الانتفاضة. وحكمت لجنة دولية من عصبة الأمم بملكية المسلمين لهذا الحائط الغربي. المترجم.

ونظرية الإلغاء نظرية يصعب الحفاظ عليها حين يعلن البابا نفسه أن اليهود هم شعب العهد. حقًا هو لا يتحدث باسم كافة المسيحيين، كما أن معظم البروتستانت سوف يحتفظون على الأقل بصيغة مختلفة مخففة من نظرية الإلغاء لكى تشرح بالضبط العلاقة بين اليهودية والمسيحية. ولكن تلك الأيام التى كان الاعتقاد المسيحى فيها بأن اليهود أخفقوا فى الاعتراف بأن المسيح هو مخلصهم يمكن أن يتحول إلى اعتقاد بأن اليهود ملعونون ومرفوضون من الرب بالتالى، ومن ثم يستحقون كل أنواع الإهانة - تلك الأيام ولت إلى غير رجعة.

ولم يتم استكشاف المضامين بشكل كامل. فعلى الأقل ينبغى إعادة النظر إلى النصوص المسيحية المرجعية. وفى بعض الحالات ينبغى التعامل معها بوصفها سوء تفسير متعمدًا. وكما يخبرنا العهد الجديد، فإن كلاً من عامة اليهود فى القدس والسلطات الدينية اليهودية كانت لهم يد فى موت المسيح. وقد وجدته هذه السلطات مذنبًا بالكفر والتجديف وسلموه إلى المحتلين الرومان لعقابة (وكان الشكل المعتاد لعقوبة الموت فى مثل هذه الحالات هو الصلب). وعندما أعطى الغوغاء اليهود الفرصة لإنقاذه، قاموا بدلاً من ذلك بالمطالبة بموته وهم يصيحون حسب رواية إنجيل متى (٢٧ : ٢٥):

«فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا»

وربما لم يقولوا شيئًا من هذا النوع؛ لأن مبدأ الذنب الجماعى أو الموروث كان مناقضًا للأخلاقيات اليهودية (تثنية ٢٤ : ١٦) «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيته يقتل»(*).

ولكن ما يهم هو أنه قد سجل أنهم قالوه، وأخذته مجامع مسيحية لا تحصى منذ ذلك الحين بقيمته الظاهرية (على الرغم من أن فكرة أن الأولاد يمكن أن يكونوا مسئولين عن جرائم آبائهم تتناقض أيضا مع الأخلاق المسيحية. والكلمة التقليدية لهذا الاتهام هى قتل الرب. ولا غرو أن يوم الجمعة الحزينة الذى يعتبر تذكرة باليوم

(*) وكذلك تكرر فى العهد القديم عدة مرات أن الله يتفقد ذنوب الآباء إلى الجيل الثالث والرابع من الأبناء، ولعن نوح كنعان بسبب ما فعله أبوه - المترجم.

الذى صلب فيه المسيح كان هو اليوم فى جميع أنحاء أوروبا الشرقية والوسطى الذى يبقى فيه اليهود الحساسون فى بيوتهم، ويمنعون أبناءهم من الخروج حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وحقيقة أن مثل هذه الاحتياطات لم تعد موجودة بعد الحرب ليست راجعة إلى أن المسيحيين قد صاروا متسامحين، ولكن لأن جميع اليهود كانوا قد ماتوا بالفعل. وكانت الغالبية العظمى ممن نفذوا أوامر القتل من المسيحيين على الأقل من حيث تعليمهم وخليفاتهم. هذا هو الميراث المرعب لتعاليم الازدراء التى يرى كثير من الباحثين اليهود (وبعض الباحثين المسيحيين) أنها من التوابع الطبيعية لنظرية الإلغاء المسيحية.

وكانت آثارها ما تزال محسوسة فى القداس المسيحى حتى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ثم عدلت الكنيسة الكاثوليكية مضامينها المعادية للسامية (والمعادية لليهودية بوضوح)، لتأمر بالصلاة يوم الجمعة الحزينة لتكون كالتالى:

«فلنصلى أيضا من أجل اليهود غير المؤمنين، حتى يزيل ربنا وسيدنا الغشاوة عن قلوبهم، حتى يعترفوا أيضا بسيدنا يسوع المسيح. . . . الرب العظيم الخالد الذى لا يمنع الرحمة حتى عن اليهودى غير المؤمن، ولتكن الصلوات التى نقدمها لأعمياء الشعب، حتى يمكنهم أن يعترفوا بنور حقيقتك، التى هى المسيح، ويتم خلاصهم من ظلامهم. . .».

ومن الواضح أن المترجم الحديث قد اختار فى ترجمة Perfidiam و Perfidies وخلطها بالكلمة التقليدية Perfidious ، بما تحمله من مغزى الخيانة وقتل الرب. وحتى مع هذا، فإن عبارة «اليهود غير المؤمنين» عبارة قاسية والكتاب الأنجليكانى لمجموعة الصلوات العامة فى يوم الجمعة الحزينة يتخذ نغمة أنعم قليلاً فى هذه النقطة:

«أيها الرب الرحيم، يامن خلقت جميع الناس، ولا تكره شيئًا صنعته ولا حتى موت الخاطئ، ولكن أن يعتنق الدين ويعيش؛ اسبغ رحمتك على كل اليهود والأتراك(*) والكفار والهراطقة، وانزع عنهم كل الجهل، وقسوة القلب، وازدراء لكلمتك، وبذلك تحضرهم إلى البيت أيها الرب المبارك، إلى شعبك حتى يتم

(*) المقصود بالأتراك: المسلمين. المترجم.

خلاصهم بين الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين، ويكونون قطيعًا واحدًا تحت راع واحد، يسوع المسيح سيدنا. . . ».

ووجود الأتراك والكفار فى هذا الخليط أمر شاذ قليلاً، لأن الإشارة إلى الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين يهدف إلى دفع الصلاة إلى اليهود وحدهم.

والحوادث التى جرت عقب موت المسيح - أى تدمير المعبد على أيدى الرومان سنة ٧٠م وشتات الشعب اليهودى فى أماكن أخرى من العالم المعروف - تم دمجها فى الأساطير المسيحية بمثابة أدلة على تخلى الرب عن اليهود. وكان فى هذا المناخ أن كُتب جزء كبير من العهد الجديد، متضمنًا فقرات توضح درجة عالية من العداء. ويصدق هذا بشكل خاص على إنجيل يوحنا، حيث يروى أن المسيح قد قال: (يوحنا ٨: ٤٢-٤٥):

«فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت. لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى. فلماذا لا تفهمون كلامى. لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولى. أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب. وأما أنا فلأنى أقول الحق لستم تؤمنون بى».

والعلاقات بين الديانتين كانت قد انكسرت بالفعل مع وجود مبشرين مسيحيين مثل اسطفان اضطهدهم الوكلاء اليهود مثل شاول (الذى صار فيما بعد القديس بولس الحوارى) وعلى الرغم من أن المسيحية كانت لها جاذبية فى عيون الأغيار، فإن أول من اعتنقوها خارج إسرائيل كانوا من اليهود إلى حد كبير، وغالبًا ما كانوا من العبيد العبرانيين فى خدمة السادة الرومان. والمجادلة بأن الرب قد أغلق الكتاب على اليهود ولكنه بدأ مجددًا مع المسيحية، كانت مجادلة ضاغطة على أولئك اليهود المنفيين، واستخدمها الكتاب التبريريون المسيحيون الأوائل بطريقة مفحمة. وأوضح تقرير فى العهد الجديد «للاهوت الإحلال» (الإلغاء) يمكن أن نجده فى الرسالة إلى العبرانيين والذى لا نعرف يقينًا من الذى كتبها، على الرغم من أن التقاليد تعترف بأنه تأثر ببولس على الرغم من أنه لم يكتبه. يقول عن المسيح: (العبرانيين ٨: ٦-١٣).

«ولكنه الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ماهو وسيط أيضا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل. فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلب موضع لثان؛ لأنه يقول لهم لائمًا هو ذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذى عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا فى عهدى وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذى أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل نواميسى فى أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلها وهم يكونون لى شعبًا. ولا يعلمون كل واحد قريبه وكل واحد أخاه قائلا أعرف الرب؛ لأن الجميع سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم. لأنى أكون صفوحًا عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فى ما بعد. فإذا قال جديدا عتّق الأول. وأما ما عتّق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال».

وما يؤسسه هذا ليس مجرد إحلال ميثاق محل آخر، أى إحلال الميثاق الذى أبرمه المسيح محل الميثاق الإبراهيمى/ الموسوى، ولكن ترحيل وإعادة توطن الشعب اليهودى - بيت إسرائيل وبيت يهوذا - بإسرائيل أخرى ويهوذا آخر، باستخدام نفس الاسم. وأن الشعب الذى تم عقد الميثاق الجديد معه، أى إسرائيل الجديدة ويهوه الجديدة، هى الكنيسة. وهكذا فإن رواية العهد القديم يُعاد تفسيرها باعتبار أنها تستمد معناها مما أدت إليه، أى قدوم المسيح.

وخروج بنى إسرائيل من مصر كناية عظيمة قوية عن عيد الفصح. وهكذا فإنه بينما أنقذ الرب شعبه الأول من العبودية الفعلية تحت قيادة موسى، كذلك فإن المسيح موسى الجديد يقود شعب الرب الثانى للخلاص من العبودية الروحية للخطيئة.

وعلى أية حال، كما يرد غالبًا فى الكتاب المقدس، يجب إزاحة تفسير بتفسير آخر. وربما كان القديس بولس، وربما لم يكن هو كاتب الخطاب إلى العبرانيين ولكن من المرجح أنه هو كاتب الرسالة إلى الرومان: رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية: (١١ : ٢٥ - ٢٩) التى تجادل بالمعنى المضاد:

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء أن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم. وهكذا سيخلص

جميع إسرائيل. كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم. من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم. وأما من جهة الاختيار فهم أحباء من أجل الآباء؛ لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة».

لأنها فى ترجمة النسخة المعتمدة، على الرغم من رشاقتها، غامضة جداً بحيث لا توصل المعنى الكامل، ولذلك فنحن بحاجة إلى شيء أكثر وضوحًا، حتى وإن كان أكثر نثرية مثل ترجمة الكتاب المقدس الأورشليمية [أوردنا نص الترجمة السابق من طبعة أورشليم].

والواقع أن منطق ميثاق بنى إسرائيل مع الرب فى ثنايا العهد القديم هو أن اليهود ربما يكونون قد تمردوا وعصوا بشكل متكرر - بصفة مستمرة فى الحقيقة، بحيث إن أحد الباحثين اليهود أسمى الكتاب المقدس «كتابًا معاديًا للسامية» - بيد أن الرب حافظ دائمًا على هدفه من الصفقة، وعدم الاعتراف بالمسيح ربما يكون فعلاً آخر من عدم الوفاء - ويبدو من الواضح أن القديس بولس كان يؤمن بهذا - ولكن كما هو الحال دائمًا يبقى الرب مخلصًا لميثاقه على الرغم من هذا.

وكان على أساس هذه القراءة للكتاب المقدس أن أدان مجمع الفاتيكان الثانى المعاداة المسيحية للسامية سنة ١٩٦٥م فى مرسومه Nostra Aetate:

«تنطق الكنيسة معترفة بأن كل الذين يؤمنون بالمسيح - ابن إبراهيم حسب العقيدة - متضمنون ضمن دعوة نفس أبى الأنبياء، وكذلك أن خلاص الكنيسة، قد تمت النبوءة به بشكل غامض بخروج الشعب المختار من أرض العبودية . . .

وكما يشهد الكتاب المقدس، لم تعرف أورشليم زمن زيارتها، ولم يقبل اليهود بأعداد كبيرة الإنجيل. والواقع أن عدداً ليس بالقليل عارض انتشاره. ومع هذا فإن الرب يبقى على اليهود أعز عليه من غيرهم بسبب آبائهم. وهو لا يندم على الدعوات التى أطلقها - وكذلك تكون شهادة الحوارى . . . وبما أن التركة الروحية المشتركة بين المسيحيين واليهود تكون بهذا كبيرة للغاية، فإن هذا المجمع المقدس يريد أن يرسى ويوصى بالفهم والاحترام المتبادل الذى هو ثمرة الدراسات اللاهوتية ودراسات الكتاب المقدس وكذلك بالحوارات الأخوية . . .

حقا أن السلطات اليهودية ومن تبع قيادتها قد ضغطوا من أجل موت المسيح؛ ومع ذلك، لا يمكن اتهام جميع اليهود الذين كانوا أحياء آنذاك، دونما تمييز، ولا ضد اليهود اليوم. وعلى الرغم من أن الكنيسة هي شعب الرب الجديد، فإنه لا يجب تقديم اليهود على أنهم مرفوضون أو ملعونون من الرب، كما لو أن هذا نابع من الكتاب المقدس».

وتعبيرات مثل «شعب الرب» و«الشعب المختار أو الشعب المخصوص» تستخدم عدة مرات في العهد القديم للإشارة إلى بنى إسرائيل وإسباغ هذا اللقب بشكل محدد على المسيحيين في العهد الجديد موجود في رسالة بطرس الأولى (٢ : ٩ـ١٠):

«وأمّا أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلا لم تكونوا شعبًا وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون».

وكلما كان القارئ لرسالة بطرس الرسول الأولى عارفًا أحسن بالكتاب المقدس، كلما فهم أكثر أن كلمة «شعب اقتناء» كانت وصفًا مميزًا للشعب اليهودى أعيد تخصيصها عمدًا لوصف المسيحيين. وربما سيجدها القارئ فى سفر الخروج (١٩ : ٥ـ٦):

«فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لى كل الأرض. وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة. هذه هى الكلمات التى تُكلّم بها بنى إسرائيل».

وفى سفر التثنية (١٤ : ٢):

«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب اللذين على وجه الأرض».

وفى سفر التثنية (٢٦ : ١٨ ـ ١٩):

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا كما قال لك وتحفظ جميع وصاياه. وأن يجعلك مستعليًا على جميع القبائل التى عملها فى الثناء والاسم والبهاء وأن تكون شعبًا مقدسًا للرب إلهك كما قال».

وفى المزمور (١٣٥ : ٤):

«لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته».

وعملية وضع اليد التى قام القديس بطرس بها للاستيلاء على عبارة «شعبًا خاصًا» قد حدثت أيضا فى رسالة بولس الرسول إلى تيطس، زعيم المسيحيين فى كريت، والتى لا تكتسب حياة أيضا سوى فى ضوء هذه الإشارات الواردة فى العهد القديم:

«لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس. معلمة إيّانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر. منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح. الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعبًا خاصًا غيوراً فى أعمال حسنة».

(رسالة بولس الرسول إلى تيطس ٢ : ١١ ـ ١٤).

وإشارة مرسوم Nostra Aetate إلى الخروج على أنه تبشير بـ «خلاص الكنيسة» هى قطعة نمطية من التنميط الكاثوليكى المعاصر. فهى تتصور الكنيسة على أنها جماعة مرئية مثل الأعداد الغفيرة من الإسرائيليين الذين هربوا من مصر، وكما تم إنقاذهم جملة، فهذا إذن نمط الخلاص المتاح للكنيسة ومن خلالها. ولكى تنال الخلاص عليك أن تكون كاثوليكيًا.

كان هذا المذهب فى كنيسة العصور الوسطى الذى أوجد الكثير من المصاعب التى واجهت المصلحين البروتستانت الأوائل؛ إذ إنهم رفضوا الكنيسة الكاثوليكية لا باعتبارها خطأ فحسب وإنما باعتبارها شراً. وبحثوا فى الكتاب المقدس عن طريق بديل للخلاص. وإذا لم تكن عضوية الكنيسة الكاثوليكية هى الطريق الذى به يشارك المسيحى فى فعل المسيح الخلاصى، فأين كان إذن ذلك المجتمع الخلاصى الذى تحدث عنه الكتاب المقدس، شعب الرب الحقيقيون؟ هل يحتمل أن هذا الشعب خفى؟ أم أنه كان فى الواقع الدولة الوطنية البروتستانتية البازغة حديثًا؟ هل كانت هى انجلترا حقًا؟

وبالنسبة لأولئك الباحثين عن أيديولوچيا ترتكز عليها الدولة الوطنية، كان ذلك حلاً مغريًا، وأخذوا به. وفى حالة انجلترا فضلا عن ذلك بدأت حركة الإصلاح الدينى مع الملك هنرى الثامن وتنصّله من السلطة البابوية وتنصيب نفسه الحاكم الأعلى للكنيسة. ومثلما ذكرّه توماس مور، أن هذا من الناحية النظرية يجعل ملك انجلترا رئيس الكنيسة الكاثوليكية؛ وبنفس النظرية فإن الكنيسة التى يحكمها البابا (التى مات توماس مور مؤمنًا بها) لا يمكن أن تحمل نفس الاسم بصورة حقة بعد ذلك، فى انجلترا على الأقل. إذ لم يكن ثمة مكان فى أى لاهوت لكنيستين كاثوليكيتين حقًا، سواء جنبًا إلى جنب أو كانت إحداهما فوق الأخرى. فقد تحدث مرسوم نيقية فقط عن «كنيسة كاثوليكية ورسولية مقدسة واحدة». فإذا كانت هناك كنيسة تحمل هذه الصفة، فإن الأخرى لا تكون كذلك. ومن ثم هل كان من الممكن غرس جذور الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية فى تربة لاهوت كاثوليكى كنسى؟ وقد جعل هذا الفكرة غاية فى القوة والثبات. أما كيف تغلبت السلطات الإنجليزية على الاعتراضات التاريخية العادلة على هذا المفهوم المستحدث - وهى اعتراضات ساقها مور نفسه - فإن هذا ما سوف نتناوله فيما بعد.

والاستخدام اليهودى للتنميط فى التفسير كان على الدوام يتميز بفردية أكثر من الاستخدام الكاثوليكى أو حتى الاستخدام البروتستانتى؛ إذ إنه غالبًا ما يشير إلى الأفراد أكثر من الجماعات، ولسبب وجيه هو أن الجماعة اليهودية كانت ترى نفسها نمطًا فريدًا، وليست مجازًا لأى شىء آخر. وكان بعض التنميط الجماعى ما يزال ممكنًا بالربط بين الجماعات اليهودية اللاحقة بالجماعات اليهودية الباكرة. فعلى سبيل المثال، فإن وجبة التناول اليهودية هى تمثيل نمطى للخروج.

وغالبًا ما كان التنميط لأغراض التعليم والقدوة الأخلاقية. وإذا أخذنا القصة الواردة فى سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر عن أن إبراهيم كان يقدم الطعام والشراب إلى الأغراب الذين كانوا يزورونه فى خيمته، فإن ما كان مهما ليست هى التفاصيل الدقيقة لكرم الضيافة الذى أبداه إبراهيم، ولكن المهم هو أنه فعل هذا. فقد كانت القدوة الطيبة هى المهمة. ويصف الرباى لويس چاكوب فى كتابه

«Companion to the Jewish Religion» إبراهيم فى التعاليم اليهودية باعتباره نمطًا قياسيًا:

«إنه الساعى إلى الحقيقة، هو الحكيم الذى اكتشف الرب بهدوء باستخدامه طاقاته العقلية حتى قبل أن يخاطبه الرب مباشرة. . . ومن ناحية أخرى فإنه يمثل الرجل المحب الذى يثق فى ربه ثقة مطلقة ويتبعه حينما يناديه. وفى القصة اليهودية القديمة يقول رجل إنه لا يريد لابنه أن يصبح بالضرورة عالمًا مشهورًا أو قديسًا ولكن «أن يكون ببساطة يهوديا مثل أبينا إبراهيم». وثمة فضيلة أخرى من فضائل إبراهيم هى كرم ضيافته. ويتصور المدراش الربانى خيمة إبراهيم على أن بها فتحات فى نواحيها الأربع بحيث يمكن لكل من يطلب المساعدة أن يدخل مباشرة من أى اتجاه جاء. . . ويتم تصوير إبراهيم على أنه شخص لا يتراجع عن عبادة الرب مهما كان الإغراء قويًا. ومما يثير الفضول، أن أحدًا من الربانيين التلموديين لم يكن اسمه إبراهيم، ربما لأن كل يهودى كان عليه أن يناضل لكى يصير إبراهيم آخر».

هذه الاستخدامات للكتب المقدسة أمثلة دالة على التنميط. وفى الحالة اليهودية، استخدام إبراهيم بوصفه نمطًا مثاليًا من الرجال؛ أما فى الحالتين البروتستانتية والكاثوليكية، فاستخدام الحكايات من التاريخ اليهودى باعتبارها سوابق مبشرة بحياة الكنيسة. والكنيسة الكاثوليكية وبنات عمومتها الكنائس الأرثوذوكسية الشرقية تقدم فى قداسها وفى الصلوات اليومية إشارة إلى نفسها على أنها إسرائيل وأورشليم وشعب الرب والشعب المختار، وبشكل متكرر تذكر أنبياء إسرائيل الكبار على أنهم أنبياء الكنيسة. والقانون الكنسى الذى ينظم قداس الثالوث والمستخدم منذ القرن السادس عشر حتى سبعينيات القرن العشرين كان يجعل القساوسة يقدمون القربان «المقدس تماما والنقى الخالص» من جسد المسيح ودمه مع تلاوة الصلاة: «تفضل بالنظر إليهم بمحياك المحب الرحيم، وتقبلهم كما سرك أن تقبل تقدمة خادمك هابيل العادل، وقربان أبينا إبراهيم. . . تقدمه مقدسة، ضحية ليست ملطخة».

وأصداء المتشابهات من العهد القديم عميقة ومتنوعة، بيد أنها غالبًا ما تكون تلميحًا فقط بدلاً من التصريح بها. وهكذا يضحى إبراهيم (تكوين، الإصحاح

٢١) بكبش بدلاً من ابنه إسحاق(*)، وهابيل العادل (تكوين ٤) يقدم حملاً إلى الرب شكرا، قبل أن يقتله قابيل، وملكى صادق (تكوين ١٤ : ١٨ ـ ٢٠) يقابل إبراهيم ويعطيه الخبز والنبيذ (والذى يأخذه اللاهوتيون الكاثوليك على أنه السابقة التى أخذ عنها طقس الأفخار ستيا، أى القربان والتناول). بل إن ما هو أهم هو الإشارة الضمنية إلى الخروج، حيث أمر الرب كل إسرائيلى بذبح وأكل «حمل غير ملطخ» وذلك استعداداً لخروجهم من العبودية فى مصر. (ولابد أن المسيحيين كانوا على ألفة تامة بفكرة أن المسيح كان «حمل الرب» من إنجيل يوحنا (١ :٢٩) «وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم».

وفى سفر الخروج (١٢ : ١ ـ٨):

«وكلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة. كلّما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت. وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفواً لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس. كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة. تكون لكم شاة صحيحة ذكر ابن سنة تأخذونه من الخرفان أو من المواعز. ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل فى العشية. ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًا بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه».

والمغزى هو أن القربان فى القداس (والذى يتضمن أيضا، فى عمل العشاء الربانى، أكل القربان المقدم) يعيد خلق قربان بنى إسرائيل. وكما لاحظنا سابقًا يكون التحرر هذه المرة من العبودية للخطيئة، وليس من العبودية فى مصر.

وما هو متضمن فى مثل هذه الإشارات، أى أن النظام اليهودى القديم قد توقف وأن نظامًا جديدا (مسيحيًا) قد حلّ محله ـ مقرر بشكل أوضح كثيراً فى رؤيا القديس يوحنا لنهاية العالم الشهيرة فى سفر الرؤيا (٢١ : ١ ـ٣):

(*) فى أصح القولين فى التراث الإسلامى، ضحى إبراهيم بالكبش فداءً لإسماعيل، وفى العهد القديم أن الكبش كان فداءً لابنه الوحيد، ولا ينطبق ذلك سوى على إسماعيل، ولكن جاء فى موضع آخر إسحاق بالاسم ـ المترجم.

«ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد في ما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتًا عظيمًا من السماء قائلاً هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبًا والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم».

هذه الرحلة في الفهم الذاتي الكاثوليكي والأرثوذوكسي، تمسّ أسئلة مؤلمة عن الإلغاء وعلاقته بمعاداة السامية، وهي ضرورية إذا ما كان علينا أن نفهم ماذا حدث بعد ذلك: أي تطوير نظرية إلغاء بروتستانتية متمايزة تركز على الدولة - الوطنية الإنجليزية البازغة. فقد كان اليهود غير مخلصين لميثاقهم، وحل محلهم المسيحيون الأوائل. بيد أن الكاثوليك قد برهنوا أيضا عدم إخلاصهم لميثاقهم، ربما في الوقت الذي كانت فيه البابوية قد ظهرت، فيما بعد الإمبراطور قسطنطين، باعتبارها إمبراطورية رومانية جديدة (وليس هناك اتفاق بين المصلحين البروتستانت الأوائل على التاريخ الدقيق الذي صارت فيه الكنيسة العالمية غير مخلصة؛ لأن وضع التاريخ في فترة مبكرة جدا يمكن أن يدمر بعض القضابات التي آمنوا بها. وهم جميعًا يتفقون، على الأقل، على أنها كانت قد صارت غير مخلصة في العصور الوسطى).

وهكذا كان من المفترض أن الكاثوليك أيضا قد تبرأ منهم الرب. فقد كانوا بالنسبة للبروتستانت مثلهم مثل اليهود بالنسبة للكاثوليك. والحقيقة أنه ليس من الصعب أن نرى نتيجة أخرى نجمت عن هذا: أن الإنجليز بدورهم برهنوا على أنهم غير مخلصين لميثاقهم، ولهذا عقد الرب ميثاقًا جديدًا مع الأمريكيين. والمسيحيون الأمريكيون السود سرعان ما سيمضون بهذه العملية خطوة أبعد. لقد أخفقت أمريكا البيضاء، وبذلك تم تمرير الميثاق مرة أخرى. (انظر تحليل مقولة مارتن لوثر كنج «أنا عندي حلم» في فصل تال). كما أنها ليست مصادفة أن الهجوم الحانق واللاذع الذي بدأت الكنيسة الكاثوليكية تستخدمه في معاملتها لليهود قد انعكس في الهجوم المرير اللاذع الذي استخدمه البروتستانت الأوائل في تعاملهم مع

الكاثوليك. وهو ما يوحى بأن جزءاً من المنطق المخبوء فى مذهب الإلغاء إنما هو رغبة من جانب الخلف لمعاقبة السلف الذين حلوا محلهم والحط من شأنهم وتدنيسهم؛ لأنه إذا كان الرب قد تبرأ من شعبه، فلا بد أنه كان لديه سبب قوى للغاية، والبديل هو أنه إذا لم يكن اليهود غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم الكنيسة الكاثوليكية بالحلول محلهم وإلغائهم محل تساؤل؛ وإذا لم يكن الكاثوليك غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم البروتستانت المماثلة تكون محل تساؤل.

وليس من الصعب أن نرى مثالاً آخر لهذا التحقير الإحلالى الضرورى فى الطريقة التى كان الأمريكيون الأوائل يفكرون بها فى الإنجليز (أو البريطانيين كما كانوا آنذاك). وقد كان من الضرورى الاعتقاد بوجود مؤامرة استبدادية بريطانية ضد الحرية بقدر أكبر مما يمكن أن تقدمه الأدلة والبراهين، وذلك لتبرير العصيان (وفى مصطلحات الاختيار لتبرير الإلغاء والحلول). ومثلما يلاحظ فوستر فى سياق آخر (مقتبساً عن إرنست رينان): «إن خلق وطن يتضمن فهم تاريخ المرء بطريقة خاطئة». والحقيقة أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كانت انجلترا وأمريكا متساويتين فى كونهما بلدين حرين، ولم تكن أيا منهما قدوة يحتذى بها فى الحرية المدنية بمصطلحات القرن الحادى والعشرين. والواقع أن انجلترا كانت تسبق أمريكا بدرجة ما فى إلغاء الرق. وقد حكم رئيس القضاة اللورد مانسفيلد فى سنة ١٧٧٢م بأن چيمس سومرت، وهو عبد هارب من ڤيرچينيا تم إحضاره إلى المياه البريطانية، لايمكن إجباره على العودة إلى المستعمرات، موضحًا بذلك أن الملكية المطلقة لشخص واحد من قبل شخص آخر لم تكن أمراً يعترف به القانون الإنجليزى. أما السير وليام بلاكستون، الذى كان أكبر حجة فى القرن الثامن عشر فى القانون الإنجليزى العام (الذى تم الاعتماد عليه كثيراً فى مدارس القانون الأمريكية فيما بعد) فقد قال فى محاضرة له بجامعة أوكسفورد سنة ١٧٦٥م:

«إن فكرة وممارسة هذه الحرية السياسية أو المدنية تزدهر بأجلى معانيها فى هذه الممالك، حيث إنها تقرب من الكمال، ولايمكن أن نخسرها أو ندمرها سوى بحماقة وعدم جدارة من يمتلكها؛ إذ إن التشريع، وقوانين انجلترا بطبيعة الحال،

التى تم تطويعها بشكل خاص لحفظ هذه البركة التى لا تقدر بثمن حتى فى أحقر موضوع، وهو مختلف تمامًا عن الدساتير الحديثة للدول الأخرى، فى قارة أوروبا، وهى تضفى ـ عمومًا ـ سلطة تعسفية واستبدادية للسيطرة على أفعال الرعية لصالح الأمير أو عدد قليل من الكبار. وروح الحرية هذه مغروسة بعمق فى دستورنا، بل إن جذورها ضاربة فى أرضنا نفسها، بحيث إن عبدًا زنجيًا، عندما يصل إلى انجلترا، يكون تحت حماية القوانين، وبالنظر إلى كل الحقوق الطبيعية يصبح فى الحال رجلاً حرًا».

أما ما كان يلهب خيال المستعمرين الأمريكيين فى السنوات التى سبقت الثورة مباشرة، فكان هو الاقتناع بأنه على الرغم من تظاهر الإنجليز بأنهم محبون للحرية، فإنهم قد نسجوا مؤامرة لنزع الحرية الأمريكية تمامًا، وكانت المنازعات على ضريبة الدمغة وعلى رسوم الاستيراد نذيرًا بالأسوأ الآتى. ويقتبس برنارد بايلين مثالاً على هذه الحال، هو قرار اجتماع عقد فى مدينة بوسطن سنة ١٧٧٠م أعلن أن «سلسلة من الأحداث، وكثيرًا من الأعمال الحديثة... توفر سببًا عظيمًا للاعتقاد بأن ثمة خطة عميقة ويائسة تم وضعها من جانب الاستبداد الإمبراطورى وتم تنفيذها جزئيًا، لاستئصال الحرية المدنية...». وبينما أخذ يعطى وزنًا كبيرًا لهذه الشكوك فى وجود مؤامرة قبيل العصيان، لم يجد أى دليل على مثل هذه المؤامرة نفسها. وهو يكتب:

«كان المستعمرون يعتقدون أنهم رأوا من غمار الحوادث التى وقعت خلال العقد الذى أعقب مرسوم ضريبة الدمغة، نموذجًا ظهر لايمكن أن يخطئ أحد فهم معناه... لقد رأوا من حولهم بوضوح متزايد، ليس مجرد سياسات خاطئة أو حتى شريرة تنتهك المبادئ التى عليها استقرت الحرية، وإنما ما ظهر على أنه دليل يؤكد ما ليس أقل من الهجوم المتعمد من جانب المتآمرين الأشرار ضد الحرية فى كل من انجلترا وأمريكا. وكان الاعتقاد أن الخطر على أمريكا، إنما هو فى الحقيقة مجرد الجزء الصغير الظاهر مباشرة من الكل الأعظم الذى سوف يتضح نهائيا فى تدمير الدستور الإنجليزى، بكل الحقوق والامتيازات التى يتضمنها».

وكما لاحظنا فى الفصل السابق، فإن أحد المفاتيح المهمة للمقاصد البريطانية كان قد ظهر بسرعة فى التخفيف من مرسوم الاختبار فى كندا سنة ١٧٧٤م. إذ لم يكن فقط هدف بريطانيا هو استعباد المستعمرين تحت حكم ملك طاغية، وإنما كان سيتم استعبادهم بديانة مستبدة (الكاثوليكية) أيضا. (ولا حاجة للقول بأن هذا الحكم لم يكن قائمًا على أى تجربة بالظروف السائدة فى كويبك). ولم يكن الفرض الفعلى للطغيان هو الذى أشعل شرارة العصيان، على الرغم من أن إجراءات مثل وقف المحاكمة عن طريق المحلفين بدت بالتأكيد نذيراً بالأسوأ القادم، كما أعلن البرلمان فى سنة ١٧٦٦م أن له الحق فى أن يفعل هذا إذا كان يريد هذا. وفى مرسوم «لضمان أفضل لاعتماد أملاك جلالته فى أمريكا على التاج وبرلمان بريطانيا العظمى»، تم الإعلان عن أن البرلمان البريطانى «كان له الحق وله الحق فى أن تكون له سلطة كاملة لسن القوانين والمراسيم ذات القوة والحيوية الكافية لربط المستعمرات وشعب أمريكا. . . فى كل الأحوال مهما كانت». ويبدا كما لو أن المذهب الإنجليزى عن الدولة الوطنية كاملة السيادة، والتى كان أول من أعلنها هنرى الثامن، قد أنتجت فى النهاية نظرية عن الحكومة البرلمانية، كانت فى جوهرها، استبدادية. وإذا ما كان بوسع الدولة الوطنية الإنجليزية أن تفعل كل شيء، بل وتغير وتخترع ديانتها إذا أرادت أو تعدم ملكًا أو تخلعه عن العرش، إذن فإن سلطة البرلمان تكون فى حقيقتها سلطات مطلقة.

وفيما بعد يلاحظ بايلين:

«كيف يمكن تقويم، أو تفويض، أو إعادة تفسير هذ العقيدة الجوهرية فى النظرية السياسية الإنجليزية، كانت هى المشكلة المركزية التى واجهت زعماء القضية الأمريكية؛ وليس هناك مشهد أكثر سحراً فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى من الجهود التى بذلت - بداية من الصراع مع انجلترا على مدى سلطة البرلمان واستمراراً مع المناقشات على إصلاح الدستور الفيدرالى - للوصول إلى حل لهذه المشكلة».

أما ما كان الإنجليز يعرفونه بحكم الألفة وما لم يكن الأمريكيون البعيدون يعرفونه، فهو أن نظرية السيادة البرلمانية المطلقة لم تكن سوى مجرد نظرية. وما كان يوقف السياسيين وخلفهم أغلبية عن دفع النظرية إلى حدود عبثية واستبدادية هو

الدراما الإنسانية للسياسات التى يتم توجيهها حسب النظام البرلمانى ؛ إذ إن مجلس العموم ومجلس اللوردات كانت لهما قاعاتان صغيرتان نسبيًا وغالبًا مزدحمتان وتعجان بالضوضاء. وكان على السياسيين الذين يروجون لسياساتهم، كان عليهم أن يقفوا وهم ينظرون فى عيون معارضيهم الجالسين فى مواجهتهم على مسافة أقدام قليلة فقط ـ وهم يتهكمون، ويصيحون، ويلوحون، ويسخرون ـ على بعد يساوى طول سيفين فعلاً فى مجلس العموم (ولم يكن مسموحًا لأى سياسى أن يعبر خط الأمان الذى يحدد هذه المنطقة المحايدة). ولكى يواجه أولئك الذين أمامه عليه أن يحمل معه أولئك الذين خلفه، أى فريقه.

بيد أن تأييدهم لم يكن غير مشروط ؛ إذ إن الزعيم السياسى المتعصب أو غير المحبوب سوف يجدهم يبتعدون عنه بسرعة. وحتى الصمت وراءه بدلاً من التأييد المسموع المعتاد، كان مؤشرًا خطيرًا. وقد حدث هذا مرات ومرات، وقد حدث فعلاً لإدارة اللورد نورث حينما لم يعد مؤيدوه يثقون فى متابعته للحرب الأمريكية. وسرعان ما انهار تحت وطأة النيران المضادة البرلمانية التى أطلقها الخصوم من أمثال تشارلز فوكس وإدموند بروك. وهكذا كان الطغيان تحت السيطرة، ولكن على مسافة تبعد ثلاثة آلاف ميل وأكثر لم تكن هذه الكوابح الإنسانية على نظرية السيادة المطلقة لم تكن تبدو أساسية بالقدر الكافى. وعلى أية حال، فإن المستعمرين كانت عقليتهم محكومة بالمؤامرة.

بل إن الاقتراح المعقول بتعيين أساقفة فى كنيسة إنجلترا بأمريكا ـ وبدونهم كان على القساوسة الأنجليكان أن يعبروا الأطلنطى ليتم ترسيمهم ـ كان يعتبر محاولة لمد النموذج الإنجليزى فى الكهنوت، وهو مايعنى بالنسبة للپروتستانت الأمريكيين نوعًا من السلطة الدينية من الباب الخلفى. وقد رأى أتباع الكنيسة المشيخية على نحو خاص فكرة الأساقفة الأمريكيين باعتبارها خطرًا على مصالحهم. وسرعان ما كان جون آدامز يشكو من أن اقتران «الطغيان الزمنى والروحى» كان يمثل «كارثة على الحرية الإنسانية»، وأورد آراء الفيلسوف داڤيد هيوم القائلة بأن «فى كل عصور الدنيا كان الكهنة أعداء للحرية». وهكذا، كما يلاحظ بايلين «جلب الخوف من فرض أسقفية أنجليكانية إلى البؤرة، حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التى

ترتبط بشكل حي بالروابط مع البابوية وأسرة ستوارت والمذهب اليعقوبي التي تمتد قرنا في الزمان، والتي دخلت مباشرة في النزاع الثوري. . . ». ولذلك لم يكن ما ثار ضده المستعمرون هو الطغيان الفعلي، وإنما هو التهديد أو الخوف من طغيان ما. وطبقًا لإعلان الاستقلال نفسه «إن تاريخ الملك الحالي لبريطانيا العظمى هو تاريخ المظالم والاغتصاب المتكرر، وكلها تهدف مباشرة إلى تأسيس سلطة مستبدة طاغية على هذه الدول».

وبذلك كان التهديد بالطغيان هو نفسه استبداديًا، وهو ما يحمل بداخله منطقًا بعينه. وألم يقدم الكتاب المقدس أمثلة توضيحية تبين أن الملوك الذين صاروا طغاة قد تمت الإطاحة بهم؟

ودور كنيسة انجلترا في هذا كله دور غريب. فمن ناحية، كما لاحظنا بالفعل، كانت الغالبية الكبرى ممن وقعوا على إعلان الاستقلال، على الأقل، أعضاء اسميين في كنيسة انجلترا. وكان إكليروس تلك الكنيسة في أمريكا، والذين يسمون الأسقفيين، مبرزين على كلا جانبي الحماسة التي اشتعلت فيما قبل الثورة. ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر، إن لم يكن قبل ذلك، كانت كنيسة انجلترا مرموقة؛ بسبب أنها احتفظت بين أعضائها ببعض من أكثر نقادها صراحة. وفي الحقيقة، أن جزءًا من الاستقرار السياسي الذي ذهب بإعادة شارل الثاني إلى العرش، كان مفهوم الشمول الذي كان يعني أن الكنيسة سوف تحتفظ داخل جدرانها بأولئك الذين يختلفون مع بعضهم البعض بشكل أساسي حول مسائل كانوا يعتبرونها حيوية. وقد اندمج خلفاء المحافظين فيما صار حزب الكنيسة السفلى، وتجمع الفرسان في حزب الكنيسة العليا.

والرؤية العليا للكنيسة كانت تؤكد على أنشطتها الطقوسية ومكانتها المتجاوزة للطبيعة باعتبارها مؤسسة خلقها الرب، أما الرؤية السفلى فكانت ترى أنها ليست أكثر من تكتل ملائم للمسيحيين ذوي العقول المتشابهة. وكان معنى أن تكون عليا أن تكون أكثر كاثوليكية، وألا تهتم أكثر مما ينبغي بالتشابهات السطحية بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأن تكون الكنيسة سفلى كان يعني أن تكون غير

واثقة فى أتباع الكنيسة العليا لهذا السبب بالذات. وفى القرن التاسع كان السفلير قد صاروا عمومًا أنجليكانيين (پروتستانت)، بينما صار العلويون أنجلو كاثوليك؛ وكان لكل جانب جمعياته التبشيرية وكلياته اللاهوتية الخاصة. ويوضح مصطلح «الأنجلو كاثوليك» وجهة النظر القائلة بأن كنيسة انجلترا جزء من كنيسة كاثوليكية أوسع، تشكل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية - على الرغم من أنها مخطئة فى بعض مذاهبها - جزءًا منها أيضا. وفى كل من انجلترا وأمريكا جرت التقاليد على أن بعض الأسقفيات الأنجليكانية سوف يشغلها على الدوام أساقفة من الكنيسة العليا، وبعضها الآخر يتولاها بصفة دائمة أساقفة من الكنيسة السفلى.

لم يكن هناك حب مفقود بين الكنيسة العليا والكنيسة السفلى، وكان للتقسيم - وما يزال له فى القرن الحادى والعشرين - شأن كبير بالمواقف تجاه روما. وأعلى القساوسة الأنجليكان فى الكنيسة العليا يمكن ببساطة الخطأ فى اعتبارهم قساوسة كاثوليكًا رومانًا، مثل بناياتهم الكنسية. وأدنى قساوسة الكنيسة السفلى الأنجليكان، من ناحية أخرى يختارون نقيضًا يكاد يكون پيوريتانيًا، سواء فى الملابس التى يرتدونها أو فى الطريقة التى يفرشون بها كنائسهم ويديرون بها احتفالاتهم. والكنيسة (الأنجليكانية) فى أيرلندا، التى كانت تقليديا كنيسة سفلى، لم تكتف بمنع الصليب الذى يجسد المسيح فوقه، ولكنها منعت أيضا الصلبان المجردة (التى لاتحمل شخوصًا) حتى الستينيات من القرن العشرين، على أساس أنه حتى الصليب المجرد - وهى فى انجلترا العلامة المميزة للكنيسة السفلى - كان صليبًا رومانيًا جدًا.

وربما لا تكون ثمة مفاجأة، إذا ما أخلنا فى اعتبارنا أن المجموعتين السابقتين اللتين شكلتا حزب الكنيسة العليا وحزب الكنيسة السفلى قد خاضتا حربًا أهلية مريرة فى انجلترا القرن السابع عشر، بحيث إنهما كانتا فى قلوبهما لا تثق كل منهما فى الأخرى على كل من جانبى المحيط الأطلنطى فى القرن الثامن عشر. والواقع أن بعض انحيازات للمجموعتين الباقية ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا قدر لها أن تجرّ أمريكا إلى حربها الأهلية فى القرن التالى.

وفى مقدمته لكتاب «The Cousins Wars» يقول كيفن فيليبس : إن الصراع الكامن فى الجانبين ، والذى تحول إلى حرب ضَرُوس ، فى انجلترا أولاً : ثم بينهم الإنجليز والأمريكيون وأخيراً فى أمريكا (الحرب الأهلية) يؤدى إلى صياغته للموضوع :

«أنه من القرن السابع عشر ، عرف الناس المتحدثون بالإنجليزية فى كلتى القارتين أنفسهم بالحروب التى حافظت على ثقافة سياسية مرشدة من الكنيسة السفلى البروتستانتية الكالفينية، بارعة تجاريًا ، توسعية عسكريًا ، ومقتنعة إلى حد كبير فى العالم القديم وفى العالم الجديد، أو فى كليهما ، أنها تمثل شعبًا مختارًا ومصيراً واضحًا . وفى السياق الكامل للقرون الثلاثة ، كان الفرسان والأرستقراطيون والأساقفة قد انسحبوا منها ، على حين امتلك القيادة البيوريتان ، والمقاولون العصاميون ، الوطنيون الأنجلو سكسون والتوسعيون ، وأصبحوا يمسكون بزمام الأمور ، خاصة فى أمريكا» .

ويوافق فيليبس جزئيًا مع مؤرخين آخرين ممن سلموا بتداعيات «ثلاثة مذاهب بيوريتانية على كلا جانبى الأطلنطى . وصل أولها إلى قمته فى منتصف القرن السابع عشر فى الحرب الأهلية الإنجليزية وانتصار كرومويل ؛ ووصل الثانى إلى قمته فى نيوإنجلاند قبل الثورة الأمريكية مباشرة وكان عاملاً مهمًا فى قضاياها ؛ أما الثالث فقد ظهر كذلك قبل الحرب الأهلية الأمريكية مباشرة :

«والفكرة ساحرة لأنها تساعد على التفرقة بين حركات الإحياء فى هذه الثقافات الثلاث . فهى جميعا ذات عقلية إصلاحية ، ومشاعية وتجارية كما أنها صارمة دينيًا . وبين تأثيرات الإحياء والصحوات العظمى فى الجنوب الأمريكى (وقد يضيف البعض شمال انجلترا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر) والتى كانت أكثر عاطفية وأقل ارتباطًا بإصلاح الطبقة الوسطى أو القيم التجارية . وحروب أبناء العم الثلاث على أية حال تتطابق مع المذاهب البيوريتانية الثلاثة على الرغم من أن هذا الكتاب سوف يترك اللاهوت لآخرين» .

والمذهب البيوريتانى ، كما سنناقشه لاحقًا ، هو شكل من المسيحية يضع تأكيداً

كبيراً على العهد القديم، ويأخذ منه متشابهات مع الحاضر، وبذلك يرى أن هناك تشابهات قوية بين الجماعة البيوريتانية وبنى إسرائيل الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس، فكلاهما هم الشعب المختار. وفي داخل المذهب البروتستانتي كان عليه أن يرضى من حين لآخر بأشكال غير كالڤينية من المسيحية، سواء داخل المذهب الأنجليكاني أو في الطوائف المنفصلة مثل المنهجيين Methodists. وأولئك ـ وهم إنجيليون أساسًا ـ يضعون تأكيدًا أكبر على العهد الجديد، ويرون أن هناك عدم استمرارية أكثر من الاستمرارية بين جزئي الكتاب المقدس، وحركات الإحياء والصحوات الكبرى التي يتحدث عنها فيليپس كانت أنجيلية، وركزت على جهود تحويل الناس إلى المسيحية بالتبشير العاطفي الذي تم تصميمه على أساس إثارة خوفهم من اللعنة وحاجتهم إلى المواساة الروحية. أما البيوريتانية فكانت دائمًا أكثر برودة من ذلك. ولذلك فإن التفرقة اللاهوتية التي يلمح فيليپس لها تكمن في منطقة العهد القديم في مواجهة العهد الجديد، والقدرية ضد الإرادة الحرة، أو الأرمينية(*) ضد الكالڤينية. وفي التاريخ الثقافي الأنجلو ـ سكسوني، يبدو المذهب البيوريتاني أكثر ارتباطًا بتقدم العلم (إسحاق نيوتن) أو بالثورة الصناعية (آدم سميث)، كما أن المذهب الإنجيلي قد ارتبط بالإصلاح الاجتماعي (ويلبر فورس وشافتسبوري). ولاشك في أن المذهب البيوريتاني كان هو المذهب الأكثر تشددًا وتحزبيًا، ويدخل إلى أعماق الروح. ولايمكن أن يكون ثمة شك أيضا في أن الفرسان كان لديهم الكثير المضحك.

بيد أن صعود البيوريتانية وسقوطها في بريطانيا يختلف قليلا في إيقاعه؛ لأنه كان مرتبطا في البداية بصعود الاقتصاد السياسي (الرأسمالية التي تؤمن بالحرية الاقتصادية Laisser - Faire) في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم مع التوسع الصناعي العظيم في النصف الثاني من هذا القرن. وكانت أمريكا الشمالية متخلفة عن هذه الدائرة بحوالي نصف قرن من الزمان، على الرغم من أنها حينما أخذت تقوم بالتصنيع فاقت بريطانيا التي كانت القوة الصناعية الأولى في العالم. وكان أثر التصنيع في بريطانيا كبيراً؛ إذ إنه أدى إلى النمو السريع للمدن مصحوبًا

(*) نسبة إلى أرمينوس Arminius (ت ١٦٠٩) وهو لاهوتي بروتستانتي كان يعارض آراء جون كالڤن لاسيما في القدرية ـ المترجم.

بتحركات واسعة المدى للسكان من المناطق الريفية، ومصحوبًا كذلك بالفقر والجريمة وتدهور مستويات الصحة والإسكان، والنضال الصناعى والشغب من أجل الإصلاح السياسى. كانت بريطانيا بلادًا واقعة تحت ضغط اجتماعى لم يسبق له مثيل. والميثودية(*) هى التى يُعزى إليها غالبا فضل إنقاذ بريطانيا من الثورة فى القرن التاسع عشر، ولكن يعزى إلى الميثودية أيضا فضل ظهور اتحادات العمال وحزب العمال. (وكانت اجتماعات هذه الطائفة غالبًا أول ملاق للديموقراطية والمساواة تجربه الطبقة العاملة على الإطلاق).

وقد فشل فيليبس أيضا فى أن يجذب الانتباه إلى اختلاف كبير بين الإنجليز والأمريكيين فى زمن الحرب بينهما: وهو أن الأمريكيين كانوا فى ذلك الوقت أكثر «تدينا» بكل معنى الكلمة. لقد كانت الديانة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر آخذة فى الركود. وربما كان الناس الذين أرهقتهم الانتفاضات الدينية فى القرنين السابقين، قد قنعوا بأن يتركوا المسائل تنساق مع التيار، والكنيسة تنساق معهم. وكان أحد تأثيرات إعادة الملكية هو تركيز السلطة على الكنيسة بأيدى طبقة أثرياء الريف، وكان هؤلاء من أعيان الريف الصغار والمتوسطين الذين يمارسون الفلاحة والصيد ويتزاوجون فيما بينهم، وكان لديهم خدم فى البيت وعمال فى الأرض، وكان القسيس المحلى مفيدًا لهم كوكيل يحفظ القانون والنظام والتوافق الاجتماعى والأخلاقى. وكثير من أثرياء الريف، بجانب كونهم موظفين محليين، كان بوسعهم أيضا أن يمتلكوا مصادر معيشة الكنيسة المحلية الأبرشية - من خلال نظام كان يسمى الحماية، كان من حقهم تعيين من سيكون شاغل الوظيفة التالى من الأحياء، على الرغم من أنه إذا ما تم تعيينه، فإنه يتمتع بحق ما كان يسمى حرية القسيس - بحيث يضمن حيازة وظيفته والدخل الكافى. وكان الرجل الذى يمتلك مصادر المعيشة مسئولاً أيضا عن الحفاظ على الكنيسة؛ ولذلك كان هذا امتيازًا مكلفًا فى بعض الأحيان.

وكان أثرياء الريف الذين يمتلكون أرضًا هم العمود الفقرى لما كان يسمى «برلمان

(*) الميثودية طائفة بروتستانتية أسسها جون ويزلى سنة ١٧٣٠م - المترجم.

الفرسان» الذى تشكل بعد عودة شارل الثانى، وكانوا هم الذين يرسمون خط التسامح مع الكاثوليك الرومان عندما قام دوق يورك، والذى صار فيما بعد الملك چيمس الثانى، باقتراح ذلك. وكان التسامح إزاء الانشقاق - انشقاق طوائف البروتستانت والطوائف التى انشقت عن الأنجليكان - أكثر سهولة بالنسبة لهم. بيد أن ديانة القرن الثامن عشر صارت أسرع بالتدريج، وعندما حاول شارل وچون ويزلى توجيه الأمور بحملاتهم التبشيرية الوطنية، استاء كل من القسيس المحلى وثرى الريف من التهديد الذى يواجه سلامهما. وكانت هذه قاعدة غير محتملة لمؤامرة أسقفية إنجليزية للإطاحة بحريات المستعمرين الأمريكيين، وما أن انتهى آخر عصيان يعقوبى (١٧٤٥م)، حتى كانت العاطفة البورجوازية الإنجليزية لا مبالية وراضية عن نفسها. وكانت طريقة التعامل مع الدين ليست هى إثارة الكثير من الضجة حوله.

بيد أن هذا لم يكن الانطباع السائد على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى. فقد كانت لدى الإنجليز خطة - حسبما اعتقد المستعمرون - لجلب كل رعايا التاج داخل جماعة الكنيسة الرسمية. وكانت جمعية الترويج للإنجيل، التى تأسست أصلا للتبشير بالمسيحية بين الهنود الحمر، محل شك بأنها طابور خامس تهدف إلى سحب أتباع المسيحية المخالفة؛ ليكونوا بين ذراعى الكنيسة - وهو ما كان يعنى فى عرف القساوسة الهيمنة الأسقفية، وتفوح منه رائحة السلطة البابوية. وإذ لم يكن لديهم أساقفة يخصونهم، كان من السهل المبالغة فى قدر الفعالية التى يمكن أن يكونوا عليها. والواقع، أنه فى هذا الوقت بالضبط كان المستعمرون يعرفون أن الأساقفة الإنجليز كانوا يظهرون ما هو مضاد تمامًا للحمية الدينية، التى كان يفترض أنهم يشعرون بها؛ إذ إنهم كانوا يرأسون مجتمعًا دينيًا كاسدًا ولم يكن لديهم مفتاح التعامل معه، كما أنهم لم يهتموا بهذا كثيرًا. وكان ما يناسب أكثر كونهم من الأعيان أصحاب الأراضى الذين يمثلون طبقة أرقى. وهذه القراءة الخاطئة للمخططات الأسقفية حول الحرية الدينية الأمريكية كانت مثالاً كلاسيكيًا كافيًا على الإسقاط - فقد افترض البيوريتان فى نيو إنجلاند أن الأنجليكان الإنجليز كانوا متطرفين فى حماستهم، لأنهم غير قادرين على تصور أحد أقل استثارة بالأفكار الدينية

منهم. وكانت أقسام كبيرة من السكان، وهم من الأنجليكان على أية حال، لم يتم ضمهم- «لا يمكن إقناعهم بسهولة بأن الحرية كانت تتهددها مؤامرة يحيكها رجال الكنيسة» على حد تعبير بايلين.

ومع هذا ولاسيما فى نيوإنجلاند فإن الرغبة المشروعة لدى الأنجليكان فى أن يكون لهم قساوستهم الذين يخصونهم زرع الشك فى أن المقصود كان أسوأ بكثير. فلماذا تمت المبالغة فى الخوف من الأساقفة بهذه السهولة؟ هذا هو ما يستحق مزيداً من البحث. هناك فى الحقيقة تشابه ملحوظ بين الخوف الأمريكى قبل الثورة من وصول الأساقفة الإنجليز سنة ١٧٧٠ والخوف الإنجليزى فى العصر الڤيكتورى من وصول الأساقفة الكاثوليك سنة ١٨٥٠م، كما أن بعضاً من البلاغة المسرفة كان فى الحقيقة متبادلاً فى الحالتين. فعندما عرف أن البابا اقترح تعيين أساقفة كاثوليك فى انجلترا، قامت جريدة «The Times» اللندنية بقيادة الضجة العامة بمقالة بارزة أدانت «أحد أكبر أفعال الحماقة والوقاحة التى غامر بلاط روما بارتكابها منذ أطاح التاج والشعب فى انجلترا بالنير الرومانى. . .».

ومن الواضح أن هناك «شيئاً حول أسقف» ما ولكن ربما كان ذلك فقط قبل وصوله. وفى كلتى الحالين فإن المحصلة النهائية، حينما جاء الأساقفة محل السؤال واستقروا فى النهاية، كانت متواضعة تماماً عن التوقعات. إذ لم يكن ثمة أثر للطغيان. ولكن فى كل حالة كان ثمة أسقف يمثل كنيسة تصوغ دعوى منافسة للشعب المختار، يتم الإحساس بأنها تهدد الجماعة التى تعتقد أنها تملك هذا اللقب، سواء بالتصريح أو التلميح. إذ كان الأسقف الأنجليكانى يمثل دعوى إنجليزية فى مواجهة الزعم الأمريكى، كما أن الأسقف الكاثوليكى كان يمثل الزعم الرومانى فى مواجهة الزعم الإنجليزى. ويلاحظ بايلين «أن الخوف من فرض السلطة الأسقفية الأنجليكانية على هذا النحو يجلب إلى البؤرة حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التى تحيا مع روابط عمرها عدة قرون مع البابوية، وآل ستيوارت واليعقوبيين تدخل مباشرة فى الصراع الثورى. . .». وقد حفزت بين الزعماء الفاهمين تماماً للرأى العام. . . «إحساساً عاماً بأنهم يعيشون فى عالم تآمرى، كان كبار الموظفين فيه ينطقون بما لا يقصدونه فى الحقيقة، وأن كلماتهم كانت إشارة إلى خطة شريرة آثمة».

وفى مفهوم سكان نيو إنجلاند، وجون آدامز على وجه الخصوص، كان الأساقفة سيئين بطبيعتهم، سواء كانوا أنجليكانًا أو كاثوليكًا، آدامز الذى كان أول نائب رئيس وثانى رئيس للولايات المتحدة كان من أكبر المؤثرين قبل الانفصال عن انجلترا. ولم يكن متاحًا أمامه أى مثال للسلطة الأسقفية يخلو تمامًا من السلطة السياسية أو العلمانية، مثل الأساقفة الميثوديين المحدثين فى الولايات المتحدة. وهكذا كان الأساقفة الذين عرفهم مربوطين دائمًا بنظام أكبر، إلى التاج الإنجليزى وحكومة جلالة الملك، أو إلى روما والڤاتيكان. وكان هذا هو السبب فى كونهم خطرين.

وكانت فى ذهن آدامز دراسة قام بها الڤايكونت موليسورث عن كتب الديموقراطية فى الدنمارك قبل قرن من الزمان: وكانت دراسة موليسورث المعنوية «An Account of Denmark» من القراءات المطلوبة فى أمريكا قبل الثورة. ويعلق بايلين بقوله:

«كان الخوف من اقتران الطغيان المدنى والطغيان الكنسى ببعضهما أمرًا مركزيًا بالنسبة لفهم جون آدامز للتاريخ الأمريكى وكذلك للأزمة الثورية. وكتب أنه كان كراهية، وفزعًا، ورعبًا من الاتحاد الجهنمى الذى سبق وصفه، الذى خطط ووجه وأنجز الاستيطان فى أمريكا"، وكان نفس هذا الاتحاد بينهما هو الذى واجه الأمريكيين سنة ١٧٦٥ م. "ويبدو أن هناك تخطيطًا مباشرًا ورسميًا لاستعباد أمريكا كلها. وهذا على كل حال يجب أن يتم عمله على درجات، ويبدو أن أول خطوة مقصودة هى التدمير الشامل لنظام آبائنا كله باستقدام القانون الكنسى والقانون الإقطاعى إلى أمريكا".

والسلطة البابوية، أى التزاوج بين كنيسة روما والسلطة المدنية العدوانية، كانت تُعتبر أكبر خطر، الخطر الكلاسيكى؛ ولكن كانت تلك مجرد حالة خاصة، على الرغم من كونها الحالة الأوضح فى الظاهرة الأكثر عمومية. وقد أشار موليسورث إلى "أنها كانت غلطة كبرى أن يُظن أن الديانة البابوية هى الوحيدة بين كل الطوائف المسيحية المناسبة لتقديم وتأسيس العبودية فى وطن يسود الظن فيه بأن السلطة البابوية والعبودية لايمكن أن ينفصلا عن بعضهما البعض. . . إنها ليست البابوية

بحد ذاتها ولكنه مذهب الطاعة العمياء، أيًا كانت الديانة التى يوجد بها، هو الذى يدمر الحرية، وبالتالى يقضى على السعادة كلها فى أى وطن " .

كان تصور أن كنيسة انجلترا تطلب من أعضائها الطاعة العمياء تصورًا عبثيًا بشكل واضح. والكاثوليكية التى كان آدامز يكتب عنها هى الصورة الكاريكاتورية لها فى كتاب فوكس الذى يحمل عنوان «Book of Martyrs» الذى كان قد صدر قبل مائتى سنة مضت، وليست هى الثقافة المعاصرة لڤيينا هايدن وموزار وبيتهوڤن.

كانت هذه هى الخلفية العاطفية الحديثة التى تعين على مؤسسى أمريكا أن ينظروا فى مسائل الكنيسة والدولة على أساسها. إذ كان التراث الذى ورثوه تراثًا لا يرفض مبدأ المؤسسة ، أى أن ديانة واحدة يجب أن تنفرد بنيل إعانة خاصة، والتمتع بمكانة وحماية خاصة، فى مقابل درجة من سيطرة سلطة الدولة على شئونها. فقد كانت مستعمرة ڤيرچينيا قد أسست كنيسة انجلترا على هذا الأساس، أما ماساشوستس وغيرها فقد أسست كنائس طائفية؛ وعلى مدى فترة من الزمان منحت ماريلاند حماية خاصة للعقيدة الكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن ذلك انتهى سريعًا. وخلف الخوف من الأساقفة الإنجليز كان الخوف من أن التاج الإنجليزى يفترض أنه يهدف إلى الوحدة والاتساق فى هذه الأمور، مع وجود كنيسة انجلترا فى جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة ومع وجود الأساقفة فى كل المدن الكبرى.

ومثل هذه الكنيسة كانت ستكون قابلة للمساءلة ليس فى أمريكا ولكن فى لندن، ولكن ذلك لم يكن يبدو مصدر القلق الرئيسى. وإنما كانت الديانات غير الراسخة، تلك الديانات التى شعرت أنها محرومة من الميزات بتجربتها مع كنيسة أخرى منافسة من الكنائس المستقرة، لدرجة أن البعض قاوموا بصراحة فكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية البازغة يمكن أن تكون لها ديانتها الخاصة. وبعبارة أخرى فإنهم لم يثقوا فى رفاقهم البروتستانت. وهكذا ولنضرب مثلاً واحدًا، كان المعمدانيون فى كونكتيكت مستاءين من تأسيس الكنائس الطائفية فى تلك الولاية، لدرجة أنهم كتبوا إلى توماس چيفرسون عندما كان رئيسًا ليمتدحوا التعديل الأول (أى الفصل بين الكنيسة والدولة). وتلقوا منه رسالة جوابية فيض لها أن تصبح نصًا دستوريًا كلاسيكيًا.

«إننى إذ أعتقد معكم أن الدين مسألة بين الإنسان وربه وحدهما؛ وأنه لايقدم حسابًا عن إيمانه لأحد غيره أو عن عبادته؛ وأن السلطات التشريعية للحكومة تصل إلى الأفعال فقط ولا تصل إلى الآراء، فإننى احترم الاحترام العظيم لهذا الفعل من جانب الشعب الأمريكى كله، الذى أعلن أن تشريعاتهم لايجب أن تجعل أى قانون يحترم مؤسسة [معينة] للدين، أو يمنع بالتالى الممارسة الحرة، وبذلك يبنى سوراً يفصل بين الكنيسة والدولة».

كان مايعنيه جيفرسون الكنيسة بوصفها مؤسسة خاصة، فليس هناك دليل على أن الكونجرس كان يرغب فى أن يستبعد الدين بحد ذاته. وأول رئيسين، واشنطن وآدامز، أعلنا عن أيام وطنية للصيام والتقشف ـ وهو بصراحة ما كان إعلانه من وظائف الكنيسة، وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية. وبعيدًا عن الفصل، كانت مثل هذه الأعمال إشارة فى الاتجاه العكسى: الصهر الكامل للزعامة الروحية والزمنية فى منصب واحد (مثلما هو الحال فى إنجلترا). وكانت هناك أمثلة أخرى باكرة: إصدار نسخ الكتاب المقدس لقوات الجيش الثورى، وتلاوة الصلوات قبل الاجتماعات فى الكونجرس، وإقامة خدمات الكنيسة فى المبانى الفيدرالية. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ولدت وهى تعتقد أنها شعب الله المختار، فمن الصعب أن نراها فى الوقت نفسه باعتبارها كيانًا علمانيًا تمامًا. والفصل بين الكنيسة والدولة يسهل بالفعل هذا الدمج للشخصية الدينية والسياسية للوطن الجديد فى كيان واحد؛ لأن هذا يعنى أنه ليست هناك مؤسسة داخل الدولة، بحيث تكون لها مزاعم منافسة بديلة.

ولم تكن مسألة المؤسسة أحد المبادئ العلمانية، ولكنها كانت فى أساسها مسألة عملية ـ إذا كان لابد من تأسيس كنيسة، فأى كنيسة تكون؟ إذ إن بعض أجزاء المستعمرات الثلاث عشرة كانت تحت التأثير القوى للكنيسة البريسبيتارية الاسكتلندية، والبعض الآخر كان متأثرًا بالكنيسة الجماعية التى خرجت من عباءة الكنائس البيوريتانية المستقلة فى القرن السابع عشر؛ وكان المعمدانيون يتكاثرون فى كل مكان؛ وكان اللوثريون الألمان لهم مزاعمهم فى كل مكان، والكويكرز فى مكان آخر، والكالفينيون الهولنديون فى مكان غيره، وكان لمعظم الولايات روابط

الأنجليكانية قوية، على الرغم من أن هذا لم يكن التوازن الحذر الشامل بين الكنيسة السفلى والكنيسة العليا الذى كان يجرى فى إنجلترا، ولم تكن هناك صيغة واحدة للمسيحية يمكن أن توافق عليها ڤيرچينيا الأنجليكانية وماساشوستس البيوريتانية.

ومنذ ذلك الحين لم تكن هناك معارضة كبيرة عندما تم اقتراح تعديل الدستور بحيث يمنع الحكومة الفيدرالية من تأسيس أية كنيسة باعتبارها الكنيسة الرسمية. بيد أن هذا لم يوقف الولايات منفردة من تأسيس كنائسها الخاصة - أو على الأصح استمرار كنائسها التى كانت قائمة قبل الثورة، ولم تؤسس ماساشوستس كنيستها الجماعية Congregational حتى سنة ١٨٣٣م، وهذه السابقة هى التى أوحت بالتعديل الأول فى الدستور الأمريكى - الذى يقيد السلطة التشريعية الفيدرالية وليست سلطة التشريع فى الولايات - بحيث لا يمنعها من إعادة تأسيس كنيسة جديدة إذا ما أرادت، على الرغم من أن هذا احتمال مستبعد تماماً.

ولم تكن فكرة كنيسة مؤسسة غريبة بهذا القدر حتى بالنسبة للمفكرين الراديكاليين فى القرن الثامن عشر - إذ كان مفهوم الدولة العلمانية تماماً، هو المفهوم الذى يصعب استيعابه. وما حدث بخصوص الكنيسة والدولة فى أمريكا فى ذلك القرن كان بطبيعة الحال استمراراً لسياسات الكنيسة والدولة منذ القرن السابع عشر، وهو ما كان يعود بدوره إلى البداية الحقيقية لحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا وانفصال هنرى الثامن عن روما سنة ١٥٣٢م.

كان استيلاؤه على سلطة الكنيسة قد طرح مباشرة السؤال التالى: طالما أن الدولة سيطرت على الكنيسة، فأى نوع من الكنيسة ينبغى أن تكون؟ وكانت إجابة چيفرسون «أنها لم تكن من شأن الدولة» قد استغرقت زمناً طويلاً حتى تصل؛ ذلك أن هنرى الثامن جعلها شغله الشاغل، وقتل أولئك الذين اعترضوا طريقه.

* * *

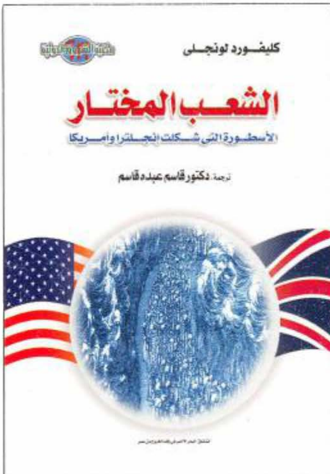
الفهــــرس

رقم الإيداع
٣٩٤٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977- 09- 0932-7

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٢٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٢



مكتبة الشروق الدولية